

## Archaeological Evidence and Qur'anic Stories: Between Revealing the Truth and the Limits of Evidence

**Sadiq al-Rikabi**

PhD in Qur'anic Sciences, Al-Mustafa International University, Iraq.

E-mail: [sadiqdahham1986@gmail.com](mailto:sadiqdahham1986@gmail.com)

**Ahmad al-Azraqi**, Assistant Professor, Department of Qur'anic Sciences, Al-Mustafa International University, Iraq.

DOI: <https://doi.org/10.64704/aldaleel.2025083003>

### Abstract

The relationship between archaeological evidence and religious stories constitutes a pivotal and intellectually contested field. It has long attracted the sustained interest of scholars across eras, disciplines, and geographical contexts. Although Western scholarship has historically taken the lead, interest in this subject gained momentum in the East only after it had already achieved prominence in Western academic debate. Archaeology itself emerged in the West, in part, as a reaction to the Church's intellectual dominance, a development shaped by a variety of accompanying historical conditions. The trajectory of interaction between archaeology and Qur'anic stories differs significantly from that in the Western Christian sphere. Certain Arab Enlightenment thinkers appropriated the perceived discrepancies between archaeology and biblical texts in the West as a methodological lens for interrogating the Qur'an, seeking to negate the historical dimension of religious narrative as a whole and projecting this negation onto the Qur'anic account—despite knowing that elements they dismissed in earlier scriptures often have analogues in the Qur'an. The historical engagement between archaeological inquiry and religious storytelling has been complex and frequently marked by tension, producing recurring episodes of debate and contestation. Re-examining this relationship through a contemporary epistemological framework is therefore essential for understanding its nature and for assessing the epistemic status of archaeological evidence; specifically, the extent of its validity and the limits imposed by its empirical domain. Adopting an analytical, descriptive, and critical methodology, this article traces the development of the archaeology–Qur'an discourse in both Western and Arab contexts, critically evaluates archaeological evidence, and engages a range of scholarly arguments and perspectives.

**Keywords:** Archaeology, epistemic limits of archaeological evidence, archaeology and the Qur'an, religious text and material outcome, Islamic archaeology.

Al-Daleel, 2025, Vol. 8, No. 30, PP .63–98

Received: 10/09/2025; Accepted: 05/10/2025

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

© the author(s)



## الدليل الأركيولوجي والقصص القرآني بين كشف الحقيقة وقصور الدليل

صادق الركابي

دكتوراه في علوم القرآن، جامعة المصطفى العالمية، العراق. البريد الإلكتروني: [sadiqdahham1986@gmail.com](mailto:sadiqdahham1986@gmail.com)

أحمد الأزرق، أستاذ مساعد في قسم علوم القرآن، جامعة المصطفى العالمية، العراق.

معرف الغرض الرقمي: <https://doi.org/10.64704/aldaleel.2025083003>

### الخلاصة

تعدّ مسألة الدليل الأركيولوجي والقصص الدينية من المسائل المهمّة والمثيرة؛ إذ كانت وما زالت تحظى باهتمام بالغ من قبل المفكرين والباحثين في الشرق والغرب، قديمًا وحديثًا، وإن كانت الدراسات الشرقية متأخرة عن ما هي عليه في الغرب؛ إذ إنّ المسألة لاقت رواجها في الشرق بعد أن لمع نجمها في الغرب، وكان الجدل الأركيولوجي قد ولد بوصفه ردّة فعل على هيمنة الكنيسة وسيطرتها على الساحة الفكرية الغربية، وساعدت ظروف متعدّدة أخرى في ذلك. إنّ تاريخ العلاقة بين الأركيولوجيا والقصص القرآنية مختلف عمّا هو عليه في الوسط المسيحي الغربي؛ فقد اتخذ بعض التنويريين العرب التناقض بين الكتب المقدّسة والبحث الأركيولوجي في الغرب وسيلة لمحاكمة القرآن من خلال نفي البُعد التاريخي في الرواية الدينية عمومًا، وإسقاط ذلك التناقض على ما في القرآن مع علمهم بأنّ نفيهم للبعد التاريخي في الكتب المقدّسة المتقدّمة له نظير في القرآن الكريم. من هنا تسعى هذه المقالة - وفق منهج تحليلي وصفي ونقدي - إلى تتبّع موضوع العلاقة بين الأركيولوجيا والقصص القرآنية في الساحتين الغربية والعربية، ونقد الدليل الأركيولوجي وتقييمه. وتوصّلت المقالة إلى أنّ الأركيولوجيا لا تملك بطبيعتها المنهجية والقدرة على الحسم القطعي في القضايا الدينية والتاريخية الكبرى، ولا يجوز اعتمادها دليلًا نهائيًا في الإثبات أو النفي، بل تصلح لأن تكون شواهد وقرائن فقط، وأنّ قيمة الدليل الأركيولوجي ليست مطلقةً، وإنّما تتفاوت بحسب نوع الأثر وسياقه ودقّة التحليل وحيادية الباحث؛ لكون الأركيولوجيا علمًا تفسيريًا يتعامل مع شواهد مادّية صامتة لا مع وقائع مكتملة.

الكلمات المفتاحية: الأركيولوجيا، حدود الدليل الأركيولوجي، الأركيولوجيا والقرآن، النصّ الديني والأثر المادّي، أركيولوجيا الإسلام.

مجلة الدليل، 2025، السنة 8، العدد 30، ص. 63 - 98

استلام: 2025/09/10، القبول: 2025/10/05

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلف



## المقدمة

يعدّ علم الأركيولوجيا (Archaeology) من أبرز العلوم التي بزغ نجمها في القرنين الأخيرين، وارتقى ليصبح أحد الأدوات الأساسية لفهم ماضي لطلما غطاه الغموض والأساطير، وقد عُدّ الدليل الأركيولوجي مرآة صادقة تعكس لنا صورة الماضي، لا كما روتها النصوص، بل كما تُخبرنا به الأرض وما طُمر فيها.

برز الاهتمام بعلم الأركيولوجيا ذروته في عصر النهضة، ليكون ردّ فعلٍ حاداً على السلطة الكنسية التي فرضت سطوتها على العقل الأوروبي، مانعةً إيّاه من التفكير خارج أطر النصوص المقدّسة، فرأى المفكّرون آنذاك أنّ الحقيقة قد تكون مطمورةً تحت طبقات التراب، لا بين دفتي الكتاب، وتبّنى كثير من الحداثيين هذا المسار في كشف ما اعتبروه "زيف الرواية الدينية".

ومع تطوّر العلوم التجريبية، وتقدّم التقنية، وانبثاق مناهج ما بعد الحداثة، تسلّلت الأركيولوجيا إلى قلب الفكر الغربي الحداثي، بل وامتدّت تأثيراتها إلى مثقفي العالم العربي، خاصّةً التنويريين منهم. وأسهمت النظرية التطورية التي طرحها داروين في كتابه الشهير "أصل الأنواع" في ترسيخ فكرة أنّ الإنسان - جسداً وفكراً ودينياً - هو نتاج تطوّر طويل الأمد، لا نتيجة خلقٍ لحظّي كما تصوّره الروايات الدينية.

في هذا السياق، تعرّضت هذه الروايات، لا سيّما الدينية منها، لانتقادات وُصفت بأنّها "علمية"، قائلةً إنّ النصوص المقدّسة تفتقر إلى ما يُثبتها في الواقع الأركيولوجي، فهل الأركيولوجيا حقاً دليلٌ قاطع لا يقبل الجدل؟ وهل وصل علماء الحفر والتنقيب إلى مرحلة يمكنهم فيها أن يحسموا الجدل حول صحّة القصص الدينية والتاريخ النبوي أو بطلانها؟

هذا ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات مشروعة:

هل يمكن اعتبار الدليل الأركيولوجي أداةً مطلقةً للحقيقة أم أنّ وراء هذا العلم طبقاتٍ لم تُنبش بعد، قد تُظهر تحيّزاً أيديولوجياً يهدف لتشويه الصورة الدينية، لا لتحليلها؟

وهل الأركيولوجيون أنهموا البحث وأغلقوا باب النقد، أم أنّ ما وصلوا إليه ما يزال في طور الفرضية؟

لا شكّ أنّ التنقيب في أخبار الماضين هو طريق من طرق المعرفة، لكنّه لا ينبغي أن يكون الوحيد ولا المطلق، ومتى ما افتقد البحث إلى الموضوعية والبراءة العلمية، فقدّ شرعيته، بل يصبح أداةً أيديولوجيةً، والمتأمل في بعض الدراسات الأركيولوجية، خصوصاً تلك التي تتناول الأنبياء أو أحداث الكتب المقدّسة، يلحظ غياب التوازن، وكأنّ ثمة زوايا لم تُضأ بعد، وأصواتاً لم يُنح لها أن تُسمع؛ ولذا سوف نعرض هذه المسألة من خلال عدّة مباحث.

## المبحث الأوّل: مطالب تمهيدية

### المطلب الأوّل: معنى الأركيولوجيا لغةً واصطلاحاً

#### أوّلاً: الأركيولوجيا لغةً

يقال: «إنّ الأركيولوجيا لفظٌ لاتيني مركبٌ من كلمتين هما "Archeo" أو "Archeo" والتي تعني القديم أو البائد أو المنقرض، ثم "Logy" والتي تعني العلم أو الدراسة، فالأركيولوجيا هي العلم المختصّ بدراسة الآثار القديمة» [أحمد محمّد، البحث الأركيولوجي، ص 27].

ولكنّ تعريف الأركيولوجيا ليس أمراً هيئاً بالنظر للتطوّرات والتحوّلات التي مرّ بها هذا البحث؛ إذ يُشير الباحث في علم الأركيولوجيا جورج ضو (George Dhaw) عند تعريفه لهذه المفردة: «وإن كانت الأركيولوجيا بحسب الاشتقاق تعني "درس العتيق أو القديم" إلا أنّ ذلك يعطي دلالةً مبهمّةً» [ضو، تاريخ علم الآثار، ص 6]..

ثمّ يُقدّم التسلسل الاستعمالي لمفردة "الأركيولوجيا" الذي يذهب إلى أنّ هذه اللفظة لم تكن لاتينيةً البتّة؛ إذ كانت تتناول في اللغة اليونانية عهود التاريخ البعيدة والتاريخ بشكل عامّ، بينما في ذات السياق ظهرت مفردة "أركيولوج" في القرون الأولى بمعنى خاصّ تماماً؛ إذ دلّت على صنف من الممثلين، الذين كانوا يمثلون دراما الإيماء المعبّرة بـ "الأساطير القديمة على المسرح" في البلاد التي تتحدّث اللغة اليونانية، ثمّ يذكر أنّ هذا الشيء أمرٌ عرضيّ؛ ولذا فاللفظة مرّت بحالة من الكسوف الطويل ثمّ بعثت من جديد، وبقي المعنى متأرجحاً بين "الأركيولوجيا والأركيولوجيا"، ولكنّ المعنى الأوّل أخذ حظّه في المحافل العلمية وأصبح رائجاً في المفردات العلمية الدولية؛ ولذا يمكن أن يقال: «إنّ علم الأركيولوجيا ليس هو كلّ دراسة الماضي، إنّما دراسة "الحجارة القديمة"، وبصورة أعمّ هو دراسة جميع الأشياء الملموسة والمنظورة التي تحفظ إثر نشاط بشري، من كهوف ومقالع وغيرها» [المصدر السابق، ص 6 وما بعدها].

وقد عبّرت الأركيولوجيا بعلم الآثار، وقد احتلّ بعضهم أنّ هذه الكلمة استمدّت وجودها من اللغة الأكديّة "أرخو" والعبرية "يرخ"<sup>(1)</sup> وأخذت في العربية على أنّها التوقيت حسب منازل القمر.

[انظر: عاصم محمد رزق، علم الآثار بين النظرية والتطبيق، ص 15]

1- المراد من مفردتي "أرخو" و "يرخ" القمر.

وعليه يكون المعنى اللغوي للأركيولوجيا العلم المختص بدراسة الآثار القديمة أو البالية التي تتضمن نشاطًا بشريًا.

### ثانيًا: الأركيولوجيا اصطلاحًا

تطلق "الأركيولوجيا (Archaeology) على دراسة الأنشطة البشرية من خلال تحليل الأدلة المادية التي خلفتها الحضارات السابقة.

يركز هذا العلم على فهم التطورات التاريخية والاجتماعية والثقافية من خلال فحص الآثار، بما في ذلك الأدوات، والهياكل، والفنون، والمقابر.

[Colin & Paul, Archaeology: Theories, Methods, and Practice, p. 624]

أوهو «علم يدرس المجتمعات الإنسانية من خلال تحليل الأدلة المادية التي تركتها، بهدف فهم الأنماط الثقافية والتاريخية والتفاعلات الاجتماعية عبر الزمن».

[Michel, The Archaeology of Knowledge, p.192]

فالأركيولوجيا علمٌ يهتم بكلِّ مخلفات الإنسان القديمة والتاريخ القديم وكلِّ ما يتعلّق بالأمور المادية التي تركها الإنسان القديم، فالبحث يتعلّق بالأدوات المادية الباقية من حياة الإنسان القديم والتي تشتمل على الأدوات الحجرية والخشبية والعظمية التي تركها إمّا بصورة اتّفاقية نتيجة حلّه وترحاله أو من خلال ما ضبطه من نقوش لأجل التسجيل التاريخي، وقد عُرفت: «بأنّها العلم الذي يهتمّ بالكشف عن الآثار المادية للثقافات القديمة - بما فيها الآثار

المكتوبة - ودراستها». [Adrian Curtis, Oxford Bible Atlas, p. 185]

إنّ الأركيولوجيا - من خلال ما تقدّم - تهتمّ بأمرين: الأول: أنّها تهتمّ بعملية التنقيب والكشف المادي ووجود الأشياء القديمة، وقد شاع هذا الأمر في القرون المتقدمة؛ إذ تمثّلت عمليات التنقيب والحفر في المقالع والمطامر الأرضية في سبيل الوصول إلى الكنوز والأشياء الثمينة، وكانت غاية الحفّار والمنقبين هي الاقتناء والتزيين والتجارة وغيرها، ولا علاقة لهم بما تحمل هذه الآثار والمكتشفات من نقوش أو أمور علمية، فالهدف والغاية تلك؛ ولذا كانت عمليات التنقيب تجري من دون أيّ بُعد نظري أو تخطيط قبل التنقيب.

والثاني: القيام بدراسته للأشياء المادية المكتشفة بهدف معرفة مضامينها، وهذا جعل من الأركيولوجيا بحثاً ذا بُعد علمي، وتمثلت بالكشف والبحث عن مغزى الآثار، ودراسة الحالة السلوكية والثقافية للإنسان القديم، ودراسة ذلك تتم بعملية معقدة غايتها معرفة مكامن البعد غير المادي (الثقافة والدين والسلوك) من البعد المادي الآثاري، فالأمر الثاني أخرج الأركيولوجيا من مجالها الحقل المادي البحث إلى جانبها العلمي البحثي من خلال التأسيس والتأصيل ومحاولة الكشف عن مغزى الأمور البائدة وتجديد آليات الكشف والتنقيب والبحث والاستنتاج في المجال العلمي. وقد ساهم التطور التقني في إيجاد المساحة الثانية وتطويرها وجلب أنظار الباحثين نحوها.

وبالتالي يكون تعريف الأركيولوجيا أنه علمٌ يهتم بالكشف عن الآثار القديمة المختلفة ودراساتها؛ من أجل معرفة الإنسان وحياته وعاداته وسلوكه والأنشطة التي مارسها وعلاقته بما حوله، بهدف رسم صورة متكاملة لماضي الحياة الإنسانية من خلال الأدلة المتوفرة.

وقد حصل خلافٌ بين الدارسين للبحث الأركيولوجي عند تعريفهم له، في أن الأركيولوجيا هل هي علم أو أسلوب أو كلاهما؟

ذهب بعضهم إلى أنها: «أسلوب تقني، والعالم الأركيولوجي ما هو إلا فني يطبق هذا الأسلوب للحصول على مادة آثارية؛ ولذا فالأركيولوجيا كأسلوب تقني تقدم خدمات للعلوم الأخرى بغية تحقيق الأهداف الخاصة بتلك العلوم، وبالتالي فهي تستعير تصورات ومناهج العلوم الأخرى التي تقدم لها خدماتها، مستفيدةً في ذات الوقت من تصوراتها وأسسها العلمية في دراسة الآثار المكتشفة، وبناءً على هذا التعريف فإن الأركيولوجيا لا تصورات ولا أسس نظرية لها، بل أسلوب حقل تقني» [أحمد محمد، البحث الأركيولوجي، ص 27 و 28].

وأما الأسس والمناهج والتصورات فهي مستعارة من علوم أخرى بعد أن تطوعها بما يتناسب والمادة الأركيولوجية.

ولكن هذا التعريف يُخرج الأركيولوجيا عن واقعها العلمي ويجعلها من الأساليب الحقلية التي تقدم خدمات للعلوم التي ترتبط بها، سواء كانت أنثروبولوجيا أو تاريخاً أو غيرها من العلوم الأخرى. وهناك من ذهب إلى أن الأركيولوجيا علم قائم بذاته ذو أسس وتصورات ومبادئ تصديقية لا تُستعار من علوم أخرى.

إذ عرّفها هاموند (Phillip C. Hammond) بأنها «الدراسة العلمية للآثار القديمة، أو البقايا المادية للحياة الإنسانية القديمة ... فإنّ الأركيولوجيا تشتمل على كلّ جوانب الثقافة القديمة من عمارة وفنّ وصناعة وفخاريات وتاريخ.

بينما عرفها ليوبيك (Leo Biek): علم لأنها تفحص بموضوعية، وتستقي النتائج، ثمّ تختبرها في حقل الدراسة.

ويعرّفها لويس بينفورد (Lewis Binford): العلم الذي يهتم بوصف وتفسير الاختلافات والمتشابهات الملاحظة في السجلّ الأركيولوجي» [المصدر السابق، ص 28].

وهناك من ينظر إلى الأركيولوجيا على أنّها علمٌ وفنٌّ؛ فقد عرّفها هال (H. R. Hall) بأنها «علمٌ وفنٌّ في نفس الوقت، فهي لا بدّ أن تكون فرعاً علمياً منظماً يقوم به باحثون مدرّبون تدريباً علمياً حقيقياً في موضوع محدّد هو بقايا الأنشطة الإنسانية القديمة، كما أنّها لا بدّ أن تكون فنّاً يتعامل مع هذه البقايا بطريقة علمية، تلك البقايا التي يعثر عليها بالتنقيب في الأرض؛ حيث دفنت وحفظت والتي يمكن نشرها باعتبارها مادةً خاصةً بالجنس البشري» [المصدر سابق، ص 28].

ويعرّفها فاجان (Brain M. Fagan): «بأنّها مجموعة من المناهج والأساليب الفنيّة لدراسة الإنسان في الماضي سواء أكانت علماً أم فنّاً، جزءاً من الأنثروبولوجيا أو التاريخ».

[Cleator, Archaeology in the Making, pp. 14 - 17]

ولذا يمكن أن نستنتج ممّا تقدّم أنّ الأركيولوجيا علمٌ وفنٌّ تهتمّ بدراسة الآثار القديمة أو البقايا المادية للنشاط الإنساني، والتي تُستخرج أو يعثر عليها ضمن عمليات التحريّ والتنقيب التي يقوم بها باحثون ذوو خبرة عالية، وللأركيولوجيا منهج وأساليب في دراسة المادة الأركيولوجية وتحليلها وإنتاج المادة الثقافية منها، فالمادّة التي تكتشف بواسطة البحث الأركيولوجي يمكن أن يستفيد منها الدراسون للعلوم الأخرى كالأنثروبولوجيا وغيرها.

## المطلب الثاني: معنى القصص لغةً واصطلاحاً

### أولاً: القصص لغةً

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «يدلّ على تتبّع الشيء، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثر، إذا تتبّعته» [ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 1، ص 350]. وقريب منه كلام الزمخشري في "أساس البلاغة" [انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، ص 510]، وقال الراغب في مفرداته: «القَصُّ تتبّع الأثر، يقال:

قَصَصْتُ أثره، والقَصَصُ: الأثر، والقَصَصُ: الخبر المقصود، بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أعْلَبَ عليه. والقَصَص بكسر القاف: جمع القِصَّة التي تكتب. وتَقَصَّص كلامه: حَفِظَه. وتَقَصَّص الخبر: تَتَبَّعَه. قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [سورة الكهف: 64]. وكذلك اقْتَصَّ أثره وتَقَصَّصَ، ومعنى ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يُقْصَان الأثر أي يتبعانه» [الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 671].

من مجموع ما ورد في الكلام السابق نجد أن القصة وردت في كتب اللغة بعدة معانٍ:

1- المتابعة وتتبع الأثر.

2- البيان والإعلام.

3- الحفظ.

4- الأمر والحديث والخبر المتتبع.

5- القطع.

ولكن ذكر الشيخ مصطفى صاحب كتاب "التحقيق في كلمات القرآن الكريم": «أنه يمكن أن ترجع هذه المعاني إلى معنى واحد وهو: أن القصة رواية واقعة جارية مضبوطة بأي وسيلة كانت، قراءة أو سماعاً، على ما طابق الواقع» [مصطفى، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج 9، ص 305].

ويذكر متقي زاده أن القصة: «هي كشف عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس، أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد؛ لتذكير الناس بها، ولفتهم إليها لتكون العبرة والعظة» [متقي زاده، أسلوب القصة في القرآن، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 15].

### ثانياً: القصص اصطلاحاً

إن القصة في أصل اللغة العربية تتكلم عن حقيقة واقعة؛ لأن القاص يتتبع الأثر، ويأتي به مستوعباً كل وجوه الصحة والصدق فيه.

وبناءً على المعنى اللغوي المتقدم جاء معنى القصة في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [سورة آل عمران: 63]، أي الخبر الصادق، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [سورة الكهف: 13]، ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة القصص: 3].

كما ونرى أنّ أصل اشتقاقها يلتقي مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [سورة القصص: 11]. [انظر: الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص 44]

فالقصص القرآني اصطلاحاً هو: «إخبار الله عما حدث للأمم السابقة مع رسالهم وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفراداً وجماعات، من كائنات بشرية وغير بشرية، بحق وصدق، للهداية والعظة والعبرة» [بلبول، القصص القرآني، ص 36].

أو هي «كشف عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس، أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها، ولفتحهم إليها لتكون العبرة والعظة» [انظر: متقي زاده، أسلوب القصة في القرآن، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 15، ص 13].

وقد عرّفها الشيخ محمد هادي معرفة: «أخباره - القرآن - عن أحوال الماضين، من أمم وأنبياء سالفين، وعن حوادث واقعة في سوائف الأيام، مما فيه العبر والاعتبار للباقيين» [معرفة، شبهات وردود حول القرآن الكريم، ص 418].

وذلك كقصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وداوود وسليمان ولقمان وذو القرنين عليه السلام وغيرها من القصص المذكورة في القرآن الكريم.

ولهذا فإنّ القرآن الكريم أطلق لفظ "القصص" على ما حدّث به من أخبار الأمم السابقة والقرون الأولى في مجالات الرسائل السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين الخير والشرّ والحقّ والباطل.

وتمتاز القصص القرآنية عن غيرها من القصص في نقطة مركزية، هي: قضية الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن، وتنعكس هذه النقطة على خصائص وميزات أخرى، فالقرآن لم يتناول القصة باعتبارها عملاً (فنياً) مستقلاً في موضوعه وفي طريقة التعبير فيها.

كما أنّه لم يأت بها من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرّخون أو القصاصون، وإنّما كان الغرض من القصة في القرآن الكريم هو: «المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأخرى التي استخدمها القرآن الكريم؛ لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها، وكانت القصة القرآنية من أهمّ هذه الأساليب» [الحكيم، القصص القرآني، ص 21].

## المبحث الثاني: الجذور التاريخية للأركيولوجيا

البحث الأركيولوجي أحد الأبحاث الجديدة في الساحة الفكرية، وقد اكتسب العناية والاهتمام في القرنين الماضيين وخصوصاً المئة سنة الأخيرة، وقولنا إنه اكتسب العناية والاهتمام في الحقبة الماضية لا يعني أنه بحثٌ مبتكرٌ لا ذكر له في العهود السابقة، بل ذكر مجدوب موساوي في كتابه "مدخل إلى علم الآثار" ما نصّه: «إنّ محاولات الكشف عن علم الآثار بدأت ما قبل العصر الحديث بآلاف السنين، حيث نجد أنّ الملك نابونيد آخر ملوك بابل أمر بحفر موقع لهيكل قديم يسبق عهده بـ 3200 سنة ليُعرف مبلغ قدمه. وفي القرن الخامس قبل الميلاد وجدت إشارات أثرية لبعض مؤرّخي اليونان، كهوميروس الذي يعدّ أول من قدّم لنا معطياتٍ وصفيةً لمعالم أثرية، وفي القرن الأوّل الميلادي اهتمّ المؤرّخون في الآثار مثل: الكاتب بلينوس، وديدور الصقلي، وإسطرابون وفيتروفيوس، كما اهتمّ الملوك والأباطرة بجمع التحف الأثرية خاصّةً الأحجار الكريمة المنقوشة، على الرغم من كون البقايا الأثرية كان ينظر إليها على أنّها بقايا وثنية يجب عدم احترامها، بل عند البعض كان يستباح تهشيمها وتكاد هذه النظرة كانت موجودةً في المراحل الأولى للإسلام، والبعض اهتمّ بها من المسلمين ولكنّ هذا الاهتمام لا يتعدّى وصفها وقراءة كتابتها إن وجدت، وكانوا ينسبونّها إلى الجنّ أو إلى سليمان النبيّ أو إلى قوم عادٍ؛ ولذلك سميت بالعاديات» [موساوي، مدخل إلى علم الآثار، ص 14].

ولذا يمكن القول: إنّ البحث الأركيولوجي قديمٌ في جذوره حديثٌ في تطوّره، وحدثته غير منقطعة عن ماضيه فالعلوم والسلم المعرفي يتكامل نتيجة التراكم المعرفي، والمعروف أنّه لا يمكن لأيّ علم أن يعيش قطيعةً تامّةً مع الموروث المعرفي والتراث؛ لأنّ المعرفة الحاضرة امتدادٌ طبيعيٌّ لمعرفة الماضي؛ إذ لا معنى للإبداع والتجديد إلّا من مادّة قبلية في الفكر البشري، فالأبحاث تنطلق من قبلات أولية يضيف إليها الباحث معرفةً جديدةً أو يراكم عليها، وتستمرّ المعرفة بالنموّ التدريجي.

ومن هنا يقع البحث في الجذور التاريخية للبحث الأركيولوجي في الحضارات القديمة وصولاً إلى العالم الحديث، وقد ذكر بعض الباحثين في هذا المجال أنّ هناك مرحلتين يمكن من خلالهما دراسة البحث الأركيولوجي، وهما: الفترة ما قبل التاريخية وما بعد التاريخية، والمعيار الذي على أساسه صنّفت هاتان المرحلتان هو ملاحظة التدوين التاريخي؛ فاعتبر حدّاً فاصلاً بين مرحلتين متميّزتين، والمرحلة التاريخية هي المرحلة التي اكتشفت فيها الكتابة، وأخذ الإنسان يعبر عن ما يكمن ضميره عن طريق التدوين والنقش، بينما المرحلة ما قبل التاريخية هي المرحلة السابقة على الكتابة والتي لا يوجد ما يؤرّخ عنها سوى الآثار الصامتة التي يستدلّ بها على نشاطهم اليومي والعملية.

وهذا التقسيم ينتابه الغموض والتشكيك، كما أنه يبقى تقسيماً اعتبارياً، فالعصور ما قبل التاريخية تبقى غامضةً بالنسبة للعصور التاريخية لعدم وجود الكتابة فيها؛ ولذلك يكون هذا التقسيم في دائرة التخمين والظنون، بينما العصور التاريخية الذي تولى السجل التاريخي ضبط الأحداث فيها وتدوين كل مفصل النشاط البشري وثقافته وحروبه وطريقة عيشه وطقوسه، فلا يحتاج إلى دراسته من خلال القطع الأثرية، ولكن مع ذلك فإن بعض الباحثين ما زالوا يعتقدون أنّ السجل التاريخي المدوّن لا يفني بالغرض في الوصول إلى كشف الحقيقة التي يروم الأركيولوجي الوصول إليها؛ إمّا لأنّه ناقص لم يسَلط الضوء كاملاً على تمام الأحداث الماضية، وإمّا من جهة التشكيك في روايته لإمكانية الدسّ والتزوير فيه، وخضوعه للأهواء والأيديولوجيات القومية أو الدينية<sup>(2)</sup>، إمّا عصور ما قبل التاريخ التي لا سبيل للوصول إليها إلا من خلال القطع الأثرية والبقايا البالية من الإنسان القديم، فهي السبيل لدراسة النشاط الثقافي البشري، «وتختلف بداية المرحلة التاريخية من منطقة إلى أخرى، ففي بلاد وادي الرافدين يمتدّ عمرها إلى حوالي خمسة آلاف سنة» [الخطيب، علم الآثار، ص 20]، بينما جاءت في مناطق أخرى متأخرةً عن ذلك؛ إذ تعدّ الحضارة السومرية أولى الحضارات التي نشأت في بلاد وادي الرافدين، ثمّ تلتها في مصر الحضارة الفرعونية.

وقد ذكر جاردنر (Gardiner) أنّ أقصى ما يمكن جمعه من المرحلة ما قبل التاريخية هي بقايا صواع الشواظ<sup>(3)</sup> التي عثر عليها في مناطق من العالم: «وليست لدينا من هذه العصور القديمة أيّ مستندات أو قرائن تاريخية أو اجتماعية سوى تعاقب عصور الجليد التي استقصاها علماء طبقات الأرض، فالأسماء أُطلقت على الطرز والنماذج المختلفة رغبةً في تسهيل عملية التقسيم،... وليس لدينا من آثار العصر الحجري القديم إلاّ الصوان المشغول» [جاردنر، علم الآثار، ص 12].

2- عند تتبّع خطاب أغلب الحدائين أو التنويريين العرب أو حتّى العلمانيين، نجد إشادةً واسعةً بالبحث الأركيولوجي؛ إذ يرون أنّه لا بدّ من إعادة رسم التاريخ بناءً على علم الآثار، وجعل البحث الأركيولوجي هو الأصل الذي يُبنى عليه البناء الجديد في علم التاريخ وإعادة رسم الصورة المشوّهة - على حدّ تعبيرهم - تلك الصورة التي خلقتها الأديان والأيديولوجيات في أذهان الناس، مدّعين أنّ معطيات علم الآثار كافية في صياغة الأحداث التاريخية، وهي أصدق دليلاً من التاريخ المدوّن، وبناءً عليه فإنّ البحث الديني والتاريخ المزور سوف يُركن جانباً؛ لأنّه - بحسب تعبيرهم - السبب الرئيسي في خلق الصراعات البشرية وتعايسة الأمم، ودليلهم في ذلك أنّ الساحة الأوروبية عندما فسحوا المجال للعلم التجريبي أن يأخذ طريقه في رسم مسيرة الحياة نقلهم من الحروب إلى السعادة والتطور! وأبرز المهتمّين في البحث الآثاري والأديان في الساحة الشرقية هم كلّ من فراس السواح، وخزعل الماجدي وفاضل الربيعي.

3- تعبير مجازي عن البقايا القليلة الناتجة عن احتراق الحضارات البدائية في لهب الزمن، أي أنّ كلّ ما تبقي من تلك العصور هو فتات مادّي محترق أو أثر باهت من نشاط بشري بدائي، وبالرجوع إلى المعاني العربية فإنّ المراد من مفردة "صواع" هو الإناء كما ورد في القرآن الكريم ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [سورة يوسف: 76] أي صواع الملك، وإمّا مفردة "شواظ" وإن كانت تأتي بمعنى اللهب من النار، إلاّ أنّ المراد هنا كما يعطيه السياق بمعنى المتفتّت والمتشتّت، أي بقايا الأنية المتكسّرة والمتفتّنة.

ثم بناءً على هذا الرأي القائل بالتقسيم الآثاري إلى مرحلتين، فهل يشمل علم الآثار المرحلة التاريخية أو لا؟

في الحقيقة الأجوبة عن هذا السؤال متعددة؛ فهناك من يذهب إلى أن علم الآثار ينبغي أن يحل محل التاريخ ويبنى التاريخ من جديد بناءً على معطيات علم الآثار، والرأي الآخر أن الفترة التاريخية لا تحتاج فيها إلى علم الآثار، فهي فترة مضبوطة تاريخية ولا تحتاج إلى مزيد من البيان والتوضيح، وهناك رأي ثالث لا يمنع من تبني علم الآثار في الفترة التاريخية بشرط أن لا يعارض ما يذهب إليه التاريخ المدون، وهذا ما يتبناه مجموعة من الأركيولوجيين وفي مقدمتهم الباحث المعاصر إسرائيل فينكلشتاين<sup>(4)</sup> (Israel Finkelstein) في كتابه "علم آثار الكتاب المقدس".

يرتبط علم الآثار ارتباطاً وثيقاً بعدد من العلوم المساندة؛ إذ إنه يُعنى بدراسة المخلفات المادية الناتجة عن النشاط البشري؛ ولذلك فهو بحاجة إلى الاستعانة بعلم التاريخ الذي يوقر المدونات والمستندات والنقوش والرموز المسمارية التي دُوّنت عن المجتمعات القديمة، كما يعتمد على علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الذي يدرس المجتمعات البشرية ونشاطها، ويُسهم في تحديد طبيعة الأنشطة المرتبطة بالتفاعل الإنساني وسلوكه وثقافته، وما يتصل بطقوسه وعباداته ونظراته إلى الحياة والموت.

### المبحث الثالث:

## الموقف الأركيولوجي الرافض للبُعد التاريخي للقصص القرآني

### المطلب الأول: الخلفية الفكرية لهذا التوجّه

لم يكن إقصاء الدين عن واقع الحياة الإنسانية ظاهرةً جديدةً، بل هي حالة متجذّرة وراسخة في التاريخ البشري، تكاد تتكرّر في كلّ زمان، متلبّسةً بثوب جديد وصورة حديثة؛ لُظهر صراعاً تاريخياً مستمراً ومثيراً للبحث العلمي. وقد شكّل نشوء التيارات الحديثة وما بعد الحديثة امتداداً طبيعياً لسياقات تاريخية متعددة؛ إذ لم تكن هذه التيارات وليدة الساعة أو نتيجة طفرة عابرة، بل جاءت نتيجة لتراكم أحداث متشابكة شملت أبعاداً فكريةً ومجتمعيةً وسياسيةً ودينيةً معاً. ومن أبرز هذه الأحداث ثورة العصر الصناعي وما أعقبها من تحولات مجتمعية وفكرية أفرزت توجّهاتٍ فكريةً جديدةً مقاومةً لكلّ ما هو سائد من أفكار ومعتقدات وعادات. وقد أسهم

4- إسرائيل فينكلشتاين هو عالم آثار بارز، ومدير مشاريع تنقيب ميدانية مهمة في بلاد الشام (من بينها تلّ مجدّو). اشتهر بمساهماته في إعادة قراءة الأدلة الأثرية لكتابات الكتاب المقدس ومؤلفه المشترك (The Bible Unearthed)، كما نال جوائز أكاديمية مرموقة وعضويات في هيئات علمية دولية.

هذا المناخ في بروز تيارات فكرية ذات مناهج متخصصة، بعضها تجاوز حدود الاعتدال ليصبح متطرفًا؛ لتتطور لاحقًا إلى ما يُعرف بتيارات "ما بعد الحداثة".

ومن بين هذه المناهج برز المنهج الأركيولوجي الذي يسعى إلى رسم صورة متكاملة للماضي استنادًا إلى الموروث المادي من آثار ومواد قديمة يُعثر عليها من خلال عمليات التنقيب المنهجي. ومن خلال هذا المنهج، يُعاد بناء التاريخ وإعادة صياغته، بدعوى أنّ التاريخ المتداول قد تعرّض لتلاعبات الأيديولوجيات المختلفة، الأمر الذي يستدعي الوقوف على الأسس الفكرية والمبادئ التصديقية لهذا المنهج لفهم مدى مصداقيته العلمية وموضوعيته في إعادة رسم الصورة التاريخية.

### أولاً: العلموية (Scientism) أو أصالة العلم (Authenticity of science)

تعدّ العلموية إحدى المبادئ والأسس المعرفية التي يستند إليها الدليل الأركيولوجي، ولكي نقف على خلفية هذا المصطلح وجذوره؛ لا بدّ من بيان معنى العلم الذي يبدو قريبًا منه، ونحاول فرزها كي لا يختلط المعنى بالفاظ متعدّدة، فما هو الفرق بين العلم والعلوم؟ العلم نقيض الجهل وضدّ الوهم، وهو معرفة حقيقة الشيء على ما هي عليه، ولكنّ المراد من العلم الذي يقصدونه هنا هو العلم الطبيعي القائم على البحث التجريبي، فالعلم هو المعرفة القائمة على آلية كشف تعتمد على المنطق التجريبي، بينما المراد من العلموية التي لها الدور في تشكيل المنهج الأركيولوجي هو منهج وموقف فلسفي يذهب إلى أنّ المنهج الوحيد الذي يستطيع أن يُفسّر الظواهر التي تحدث في العالم هو المنهج التجريبي، ولا تختصّ في حقل واحد من المعرفة الإنسانية، بل هي شاملة لجميع المعارف والعلوم، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو إنسانية.

[Williams and Robinson, Scientism: The New Orthodoxy, p. 23]

إنّ العلموية تمثّل موقفًا فلسفيًا تجاه العلم وليس العلم ذاته بالضرورة؛ إذ لا تساوي العلم ولا تقتصر عليه. فالعلم في جوهره هو آلية للكشف والتحقّق المبنيّ على المعطيات التجريبية، بينما العلموية تتجاوز هذا الإطار لتشمل تصوّراتٍ أوسع عن الوجود الإنساني ورؤيةً كونيةً للعالم، بحيث تشكّل إطارًا فلسفيًا يربط المعرفة العلمية بالمعنى العامّ للحياة والكون.

ولاقّت العلموية تمجيدًا من الباحثين الغربيين معتبرين أنّ هذا الموقف والاتّجاه الفلسفي يعدّ فتحًا في مجال العلوم الطبيعية وغيرها؛ ولذا لا بدّ من اتّخاذ الطريق الوحيد للمعرفة البشرية،

يقول جيرى فودور<sup>(5)</sup> (Jerry Fodor): «أنا مُتمسك بنظرة فلسفية ينظر إليها عادةً بصورة سلبية، هي العلمية، وهي تزعم أن أهداف البحث العلمي تشمل اكتشاف حقائق تجريبية موضوعية، وأن العلم يقترب بصورة كبيرة من تحقيق هذا الهدف، أنا أميل إلى الاعتقاد بأن العلم الذي تم تفسيره على هذا النحو ليس صحيحًا فحسب، وإنما هو واضح وصحيح بالتأكيد، إنه شيء ينبغي ألا يشك فيه أحدٌ له حظٌ من التعليم والبداهة في أواخر القرن العشرين.

[Jerry, Is Science Biologically possible, In Naturalism Defeated, p. 30]

وقد ذكر البيولوجي الفرنسي الملحد فيليكس لو دونتاك (Félix-Alexandre Le Dantec) وهو من أوائل الذين استعملوا هذا المصطلح، فقد قال في مقال نشره سنة 1911 في مجلة غراندي ريفو (Grande Revue): «أنا أو من بمستقبل العلم، أي أنني أو من أن العلم والعلم وحده سيحل جميع الأسئلة التي لها معنى... ولكنني مقتنع أيضًا أن هناك أشخاصًا يسألون أسئلة ليس لها معنى. سيظهر العلم لهم سخف هذه الأسئلة بعدم الإجابة عليها؛ بما ثبت أنها لا تحمل أجوبةً».

[https://agora.qc.ca/Dossiers/Scientisme]

وقد ذكرت للعلمية تعاريف أخرى منها: «وجوب توسع روح العلم ومناهجه على جميع مجالات الحياة الفكرية والأخلاقية» [Aundre, Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie, P. 960]. ومنها «أطروحة تُقرر أن مناهج العلوم الطبيعية يجب أن تستخدم في جميع مجالات البحث، بما في ذلك الفلسفة والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية. هي الاعتقاد بأن هذه الأساليب فقط يمكن استخدامها في السعي للمعرفة» [انظر: عامري، العلمية.. الأدلجة الإلحادية للعلم في الميزان، ص 28].

ومنها: «الاعتقاد بأن العلم - بالمعنى الحديث لهذا المصطلح، والمنهج العلمي كما وصفه المعاصرون - يوفر الوسائل الطبيعية الوحيدة الموثوقة لاكتساب المعرفة التي قد تكون متاحة حول أي شيء حقيقي» [Joho, The Nature and Origins of Scientism, pp. 1 - 2].

وقد تأثرت العلمية بالفلسفة الوضعية ونشأت في ظلها في النصف الثاني من القرن العشرين، واعتقدت أن كل مشاكل الإنسان الحياتية يمكن أن تحل من خلال العلوم الطبيعية والتجريبية ومناهجها.

5- جيرى فودور (1935 - 2017 م)، فيلسوف أمريكي معروف بمساهماته في فلسفة العقل وعلوم المعرفة. اشتهر بنظرية لغة الفكر (Language of Thought) التي تفترض وجود لغة داخلية للتفكير، ونظرية تجزئة العقل (The Modularity of Mind) التي ترى أن العقل يتكوّن من وحدات مستقلة لمعالجة المعلومات. تُعد أعماله مرجعًا أساسيًا لفهم طبيعة التفكير البشري والتمثيلات الذهنية.

وقد تمّ تقسيم العلوم إلى قسمين العلموية القويّة والعلموية الضعيفة؛ وذلك بالاستناد إلى التعاريف المتعدّدة التي تمّ ذكرها، فالعلموية القويّة: «هي التي تذهب إلى أنّ العلم الطبيعي التجريبي هو الطريق الوحيد للمعرفة، فلا يشاركه في ذلك أيّ مصدر آخر أو أيّ حقيقة خارجة عن البحث العلمي، فالعلم وحده دون عامل آخر مقياس الحقّ والباطل والمميّز بينهما. أمّا العلموية الضعيفة: فهي لا تحصر المعرفة بالعلم، بل تقول بمصادر أخرى للمعرفة، ولكنها تجعلها أقلّ من المعرفة العلمية» [عامري، العلموية.. الأدلجة الإلحادية للعلم في الميزان، ص 31 و32].

ويحاول اتّجاه العلموية أن يربط بينها وبين مفهوم العلم من أجل تسويقها وترويجها وجعلها جذابةً، بينما لا علاقة لهذا بذلك، فنحن نقبل العقل ولكن نرفض العقلانية التي تخصم العقل وتحجّم التجربة، فللعقل حجّيته، بينما لا حجّية للعقلانية بهذا المعنى، وابتناج الابتهاج بالفتوحات الفيزيائية، لكن لا نقبل الفيزيقانية التي تعدّ الإنسان مجموعةً من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية، وهكذا بالنسبة للعلموية، فنحن لا نقبلها ولا يعني أننا نرفض العلم الطبيعي، أو نقلل من دوره في ضمن حدوده المعرفية، بل نرفض أدلجة هذا النوع من العلم وجعله المدار في تأسيس الرؤية الكونية. [انظر: المصدر السابق، ص 27]

وتعدّ العلموية منطلقاً في تشكيل المنهجية الأركيولوجية وترويجها بصورة كبيرة، وإقصاءً لكلّ أدوار العقل والدين عن مسرح الحياة الإنسانية، واعتبار التجربة أساساً مقدّساً، وتضخيمها بحيث لم تبق مجالاً مهمّاً للمصادر المعرفية الأخرى.

### ثانياً: النزعة اللادينية

اللادينية تقابل الدينية، وهي في الواقع ظاهرة تبني تصوّراتها عن العالم والإنسان والإله من خلال معطيات التجربة العلمية، وتعتقد أنّ المادّة هي المنشأ وهي الخالق والمخلوق، وترفض كلّ ما يرتبط بالدين من نصوص أو تفسيرات، وتصنّف في الوقت الراهن بالإلحاد المعاصر، وقد كانت ظاهرة اللادينية في أزمنة سابقة ظاهرةً فلسفيةً تدور رحاها في المجامع العلمية الفلسفية البحتة، ولكن في الأزمنة المتأخّرة تعدّدت الأسباب لنشوء هذه الظاهرة، «فلم يعد السبب الوحيد هو البحث الفكري والرؤية المادّية، بل أصبحت ظاهرةً ثوريةً معارضةً للسلطة الدينية المتمثلة بالكنيسة، وفي عصر الماركسية أصبحت ظاهرةً سياسيةً اجتماعيةً واقتصاديةً تؤسّس لأنظمة اشتراكية ومن ثمّ شيوعية» [سيد أحمد، الإلحاد.. إشكالية الدين والتدين، ص 182].

لم تكن اللادينية، أو الإلحاد المعاصر، ظاهرةً تاريخيةً مستمرةً وواضحةً، بل يمكن رصدها تاريخياً في محطات محدّدة شهد فيها العقل البشري توجّهاتٍ لادينيةً، غالباً ما تكون نتيجة ظروف خاصّة وتفاعل الإنسان مع الدين. ومن أبرز الأمثلة على ذلك بروز اللادينية بوصفها خطأً معارضاً للكنيسة وتوجّهاتها بعد عصر النهضة الأوروبيّة. كما برزت في السنوات الأخيرة أشكال من اللادينية نتيجة فشل بعض المشاريع الدينية المعاصرة، مثل ما حدث في العالم العربي، على سبيل المثال. ومع ذلك، وباستثناء هذه الحالات المحدودة، تظلّ الظاهرة الدينية هي الظاهرة الأصليّة المصاحبة لوجود الإنسان.

وعلى أيّ حال، فإنّ بروز اللادينية بعد عصر النهضة مهّد الطريق أمام عدد من العلماء والمفكرين الذين انتقدوا الكنيسة؛ لاعتماد منهجية نقدية وتقييمية للنصوص الدينية وفق رؤية مادّية لادينية. وقد كان البحث الأركيولوجي في مقدّمة من تبنوا هذا النهج النقدي؛ إذ إنّ الأركيولوجيا - بوصفها علماً يدرس النشاط البشري في العصور السابقة - اعتمدت على التحقّق العلمي والتجريبي لمطابقة ما تذكره النصوص المقدّسة مع المعطيات المادّية المكتشفة. وقد جعلت التجربة العلمية المرجعية الأساسيّة لتصحيح الرواية الدينية، وهو ما أثار هاجساً وحرّجاً لدى الوسط الديني الغربي، الذي حاول دون جدوى التوفيق بين النصوص المقدّسة ونتائج العلم الطبيعي والتجربة التجريبية، في مواجهة التيّار الجارف الذي انحاز إلى العقلانية العلمية والتجربة المباشرة.

والجهد العلمي في الغرب يعاني بصورة عامّة من التوظيف التحيّزي كتوظيف الأبحاث البيولوجية في نصرّة الداروينية، وأبحاث علم النفس والأعصاب لإنكار حرّية الإرادة، وفيزياء الكمّ في نصرّة سقوط السببية، والأركيولوجيا كغيرها من العلوم، تعاني سلطان إكراهات ثقافة العصر ومسلّماته المعرفية التي تأبى المنازعة والمراجعة، وهي تظهر نظرياً في الخلفية الرئويّة التي تقود البحث (ثقافة العصر وعقيدته)، وعملياً في الإسقاطات الممارسة على الكشوف؛ لاستخراج النتائج المرغوب فيها. [انظر: عامري، الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأركيولوجي، ص 55]

وظاهرة نشوء العلوم وتطوّرها لا تكون خارج الزمان والمكان، وإتّما تتحدّد أصولها ومناهجها، وأهدافها وفق ذلك، ضمن أطر ثقافية لها انخيازاتها العقدية والقيمية، وقد تحوّل البحث الأركيولوجي إلى بحثٍ ناقدٍ للتوراة والكتب المقدّسة معتبرها من القضايا الخرافية التي لا يمكن إثباتها مختبرياً، بعد أن كان في زمان من الأزمنة وسيلةً للدفاع عن النصوص المقدّسة وعصمتها، ولكن تغيّرت وجهة النظر بعد صعود التيّار اللاديني، وقد صار هذا طابعاً لهذه المرحلة من عمر الأركيولوجيا.

## ثالثًا: النزعة الأنسية

كثيرةً هي التيارات والمناهج والنزعات التي أفرزتها الثورة الصناعية وعصر ما بعد النهضة في أوروبا، وأحد هذه الاتجاهات النزعة الأنسية، التي تركّز على محورية الإنسان في الحياة مستبعدةً في ذلك محورية الإله في الكون وجعله في هامش الوجود، وتحاول الاهتمام بالبُعد المادي للإنسان هاملتةً البُعد الروحي فيه، تتخذ من السعادة الدنيوية شعارًا لها، وأدواتها المعرفية التي تعتمد عليها هي العقل الأداتي التجريبي، تسعى إلى إقصاء الدين والوحي من قاموس الإنسان، وأصبحت النزعة الأنسية تمثل الخلفية الفكرية للكثير من المدارس والاتجاهات الفكرية الغربية كالوجودية والعلمانية والبراغماتية والديالكتية والماركسية وغيرها من الاتجاهات التي تأثرت بهذه النزعة، فقد أسست هذه الاتجاهات مشروعها وفق فكرة فلسفية هدفها الاهتمام بالحياة الدنيوية للإنسان من دون الرجوع للدين والوحي، بل تؤكد العقل الأداتي والمنهج التجريبي الذي صار هو المرجع في العلوم في الساحة الغربية.

وإما مصطلح "الأنسنة" فهو يحمل معنىً واضحًا - كما يبدو - مشتقًا من الإنسان، بينما النزعة الإنسانية مصطلحٌ ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي، وإن كان مدلول الكلمة وجد منذ زمن طويل [انظر: هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوربي، ص 75]، والإنسانية كما عرّفت وفق معجم وبستر بأنها عقيدة، مجموعة من السلوكيات، أو طريقة للحياة تتمركز حول اهتمامات الإنسان وقيمه، كفلسفة ترفض ما فوق الطبيعة، وتعتبر الإنسان موضوعًا طبيعيًا، وتؤكد الكرامة الأساسية وقيمة الإنسان الفرد وقدرته على تحقيق الذات من خلال العقل والمنهج العلمي التجريبي. [انظر:

الرماح، الإنسانية المستحيلة، ص 20]

فالأنسنة بما أنها موقف فكري لا ينتمي إلى القيم الروحية والوحي، وتؤكد محورية الإنسان، فلا شك أنّ أفكارها تتنافى في بعض زواياها مع الرؤية الدينية؛ لما فيها من تأليه للإنسان ورفض للماورائيات؛ إذ شكّلت هذه الأفكار لبناتٍ مهمّةً في علم الأركيولوجيا الذي يهتمّ بالبُعد الإنساني وما يحمل من نشاط في مخلفاته الأثرية. فالأركيولوجيا ليست مجرد تنقيب مادي عن الآثار، وإنما أصبحت أداةً فكريةً لتحليل البنى الحضارية والرمزية، ومع صعود الأنسية، بدأ كثير من الباحثين يتعاملون مع الظواهر الدينية والتاريخية بوصفها نتاجًا بشريًا لا وحيًا إلهيًا، فجرت بذلك أنسنة الدين، ومن أبرز الأمثلة على هذا الاتجاه ميشيل فوكو (Michel Foucault)؛ إذ استخدم المنهج الحفري لتحليل الخطابات الدينية في كتابه "أركيولوجيا المعرفة"؛ بوصفها بناءً معرفيًا لا حقيقةً مطلقةً.

وقد عانى هذا الاتجاه من مشاكل معرفية من الناحية النظرية والعملية، «فمن الجانب النظري تعاني من الضعف المعرفي والافتقار إلى رؤية كونية صحيحة، وعلى الصعيد العلمي فليس من الصعب ملاحظة العقل الأنسي الحاكم على الغرب في ضمان السعادة للبشر، فضعف عقل الإنسان العلمي وفقدان المعرفة الصائبة بالقيم سبب الكثير من المشاكل والمآزق العملية التي تركت بصمات واضحة على حياة الإنسان، فالإنسان الغربي المبتعد عن الدين بدعوى تمسكه بالقيم الأنسية ارتكب أفظع الجرائم الإنسانية، مثل الحربين العالميتين، واستعمار البلدان الضعيفة وإنتاج أسلحة الدمار الشامل واستعمالها» [الموسوي، جدلية الرؤية الأنسية والرؤية العقديّة، مجلة الدليل، العدد 2، ص 26].

### رابعاً: المنهج الحسيّ التجريبي (Empirical research)

يعدّ المنهج التجريبي الأساس النظري الذي تقوم عليه التجربة الحسية والبناء المعرفي الماديّ، وقد شاع هذا المنهج في الأوساط الغربية بعد عصر النهضة في أوروبا، وأُخذ طريقاً لتأسيس رؤية كونية قائمة على العلم الطبيعيّ التجريبي، وأُعطى مساحة واسعة في تصدّر المناهج المعرفية ومحكمة كلّ المعارف بناءً على معطياته؛ ولذا شكّل ضربة قاصمة للعقل والعقلانية والعلوم الدينية في الوسط الفكريّ الغربي، ولا شكّ في أنّ الصراع والجدل الذي حصل بين العلم والدين، والذي تناثرت آثاره إلى كلّ جوانب الحياة والعالم مرجعه التاريخي إلى الهيمنة والسيطرة الكنسية التي كانت سبباً في ردّات الفعل للأوساط العلمية، وبالتالي أدت المواجهة التاريخية إلى نشوء هذا المبدأ والمنهج الوضعي؛ إذ أقرّت الكنيسة إمكانية قراءة النصّ المقدّس ورفضت نقده وتقييمه بناءً على العلوم التجريبية، ولا بدّ من الأخذ بكلّ ما ذكر في الكتاب المقدّس، وهذا الجدل أدّى إلى ادّعاء الأوساط العلمية المخترية أنّ أصل انبثاق العالم ووجوده مرجعه إلى العلة المادية، وساعد في ذلك تبني علماء الأحياء والأركيولوجيا والكيمياء والفيزياء نظرية التطور التي شاد أساسها داروين (Charles Darwin).

والمراد من المنهج الحسيّ التجريبي - كما يُعرف وفق الموسوعات العلمية - أنّه: عبارة عن منهجية في نظرية المعرفة ترى أنّ التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة البشرية، فعند أصحاب هذا المنهج لا معرفة لها قيمة إلا المعرفة القائمة على التجربة الحسية، منكرين وجود أيّ مبدأ آخر عقلي سابق على التجربة كالتقليدات الفطرية والمعارف البديهية. [انظر: صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، ص 245]

ومع ظهور البحث الأركيولوجي اعتمد الأركيولوجيون على المنهج التجريبي في أغلب مفاصل البحث الأركيولوجي، من التنقيب إلى الوصف والتقدير الزماني مروراً بالتفسير من خلال القيام بالتجارب المعاصرة في سبيل فهم حياة الإنسان القديمة الثقافية والاجتماعية والدينية وغيرها، وقد شكّل هذا الأمر مسألةً مخرجةً في ربط التجربة بالحياة الإنسانية التي يصعب فيها ضبط السلوك والثقافة، والمشكلة في ذلك المنهج المتبع في دراسة الظاهرة الإنسانية، ونقل عن جون ستوارت مل (John Stuart Mill) قوله: «لينقل المنهج الاستقرائي التجريبي ليُطبّق على العلوم الرياضية المنطقية والطبيعية والإنسانية أيضًا» [أبو شنب، قواعد البحث العلمي والاجتماعي، ص 125].

وهذا ما نسبته بعضهم إلى هيوم (David Hume) الذي تأثر بمنهج العلوم الطبيعية تأثرًا كبيرًا، ونشأ لديه اعتقادٌ قويٌّ بأنّ النجاح الذي تحقّق في مجال العلوم الطبيعية سببه تنحّيه عن المناهج القديمة واعتماد المنهج التجريبي في البحث ... بحيث وجد أنّه بالإمكان تحقّق نجاح مماثل في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية بتطبيق ذلك المنهج في دراسة موضوعاتها [انظر: حمد، المعرفة والتجربة.. دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم، ص 136]

والتجربة في نظرهم هي المصدر الوحيد للمعرفة، وهذا ما جعلهم ينظرون إلى المناهج الأخرى نظرةً ضيقةً؛ ولذلك فسّروا القضايا التي ترجع إلى العقل بأنها تأتي عن طريق تداعي الأفكار والإحساسات المتتابعة التي تؤدي كلّ المعارف الإنسانية التي هي انطباعات إنسانية متأتية عن التجربة الحسّية والحواس [انظر: روني إيلي ألفا، موسوعة أعلام فلسفة العرب والأجانب، ج 2، ص 576]، فكّل المعارف الإنسانية - بما في ذلك المتعلقة بسلوك الإنسان - متأتية عن التجربة الحسّية، وهذا شكّل أساسًا معرفيًا مهمًا ومؤثرًا للمنهج الأركيولوجي الذي لم يخرج عن العبادة الحسّية والتجربة.

### المطلب الثاني: البُعد الفكري الأركيولوجي وتوظيفاته المعرفية

ظهر التوظيف الفكري أوّل مرّةً للمنهج الأركيولوجي في إسقاط البُعد التاريخي للقصص الدينية (الكتب المقدّسة) في أوروبا، حيث شكّك بعض الباحثين<sup>(6)</sup> في التوراة على ضوء غياب دلائل أثرية على أحداث مثل خروج بني إسرائيل من مصر أو التيه في سيناء، وقد تركّزت الدراسات الأركيولوجية في بلاد الشرق في هدف الكشف عن آثار الأنبياء ومصداقية الخبر التوراتي، ومع تطوّر دراسات النقد الأعلى في أوروبا وانحسار تفسير الكتاب المقدّس وتأويله من قبل الكنيسة،

6- منهم الباحثان توماس تومسون (Thomas Thomson) وجون ستينزور.

برزت مجموعات فكرية يستهويها التشكيك في كل شيء لا سيما في النبوات، ولم يكن هذا الجانب من التشكيك في معقولية النبوات، بل في وجود أعيان الأنبياء والقصة الدينية التي ذكرت في الكتب المقدسة، وقد بلغ هذا التشكيك أوجه في العقد السابع من القرن العشرين، خصوصاً مع صدور كتابين مثيرين لباحثين غربيين، الأول: "تاريخية روايات الآباء.. البحث عن إبراهيم التاريخي" (The Historicity of the Patriarchal Narratives: The Quest for the Historical Abraham) عام 1974 لتوماس طومسون (Thomas L. Thompson)، والآخر "إبراهيم في التاريخ والتراث" (Abraham in History and Tradition) لجون فان سيتيرس (John Van Seters)، وقد أقام هذان الباحثان قرائن على صناعة النص التوراتي في الألفية الأولى قبل الميلاد، وقد ظهر في زمان تقلصت فيه الساحة الفكرية التي كانت مناصرةً للكتاب المقدس، والتي مثلتها مدرسة الأركيولوجي الأمريكي وليام فوكسويل أولبرايت (William F. Albright) والتي سيطرت على الساحة الفكرية من العشرينات إلى الستينات من القرن العشرين، كما رافق ذلك كله بروز التيارات الشكوكية لما بعد الحداثة، كل ذلك ساعد على تمدد الدراسات الأركيولوجية التي انحازت إلى إنكار الحقيقة التاريخية للنصوص المقدسة. وكان دليلهم في كل ذلك ما نُحِبر به الأرض من آثار؛ ولذا ذهبوا إلى القول بأن جميع القصص الدينية أساطير ولا وجود لها في الواقع، ولم ينتهوا إلى هذه النتيجة إلا بعد الحسم في قطعية النتائج الأركيولوجية، والأمر الآخر حجية الدليل الأركيولوجي المعرفية وحصريّة المعرفة فيه، وهذا ما دعاهم إلى القول بأن بني إسرائيل لم يرجعوا نسباً إلى يعقوب؛ لخرافية شخصية النبي يعقوب بزعمهم، وإنكار خروج بني إسرائيل من مصر، وقولهم إنهم جماعة دينية وثنية نشأت في فلسطين، ولم تأت من خارجها؛ ولذا زعم طومسون: «لم توجد اليهودية حتى القرن الثاني قبل الميلاد» [William, what Did the Biblical Writers Know and When Did They Know It?, p. 7].

وهذا الأمر سيأتي نقاشه خصوصاً وأنّ الماجدي والسواح وغيرهم من الملاحدة العرب يكرّرون باستمرار في حديثهم، كما تكرر منهم الحديث عن أنّ اليهود لم يعرفوا التوحيد إلا في القرن الخامس قبل الميلاد، والدليل الذي يستندون إليه غياب آثار التوحيد بحسب المعطى الأركيولوجي، وما ثبت أركيولوجياً أنّ المنطقة التي عاش بها بنو إسرائيل لم تعرف التوحيد خصوصاً يهوداً والسامرة؛ لوجود آلهة متعدّدة في تلك المنطقة.

هذا النقد امتدّ إلى القرآن الكريم باعتباره يحتوي قصصاً مشابهة، فرأى بعضهم أنّ غياب الشواهد الأثرية دليل على "أسطورية" النص، وهذا الطرح يفترض سلفاً أنّ كل ما هو ديني

يجب أن يُثبت أثرياً، فقد ذكر طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي" عبارةً أثارت سخط الشارع وأشعلت زوبعةً فكريةً في النصف الأول من القرن العشرين حيث قال: «للتوراة أن تحدّثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدّثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنّما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويثبتون فيه المستعمرات» [طه حسين، الشعر الجاهلي، ص 29].

وقد سار على هذا المنهج في التشكيك في القصص القرآنية من خلال محاكمة التوراة وإدانة القرآن مجموعة من اللادينيين العرب أو المتنوّرين، «ومنهج اللادينيين العرب ذكر الخبر المستنكر في التوراة، وإنكار تاريخيته كليةً، مع علمهم أنّ له نظيراً في القرآن» [عامري، الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأركيولوجي، ص 28].

فهم يمارسون نوعاً من التشكيك المبطن لنصوص القرآن الكريم؛ ولذا نرى الماجدي يصرّح بأنّ القرآن ينقل خرافات اليهود؛ إذ يقول ما نصّه عن قصة الخلاف بين قابيل وهابيل: «كلّ هذه العناصر موجودة أيضاً في المدراس (٧٦٦٦)، وكلّها ستتسرّب إلى القرآن وسيتحوّل اسم قايين إلى قابيل» [الماجد، أنبياء سومريون.. كيف تحوّل عشرة ملوك سومريين إلى عشرة أنبياء توراتيين؟، ص 218]. ثمّ يستشهد لذلك من كتاب "بدائع الزهور"، وهو شيء مثير خصوصاً لجهة عدم اعتبار الكتاب المذكور.

ونظير ذلك ما يذكره في قصة النبيّ شيث عليه السلام التي يرجعها إلى أسطورة مصرية قديمة من خلال التشابه بين ما تذكره الرواية الدينية والأسطورة؛ إذ يذكر الإله "ست" وأنه مشابه لشيث الديني، ويحمل الاسم المقدّس للنبيّ شيث وكأنّه يخترن في أعماقه تلك الروح الشريرة التي سكنت قابيل منذ بدء الخليقة [المصدر السابق، ص 230]! فالتشابه بين القصص الدينية لا يعني بالضرورة أنّ الأديان هي وليدة الأساطير، فإنّ هذه الدعوى لا دليل عليها.

فالدراسات الأركيولوجية في الساحة الشرقية تكاد تكون دراساتٍ لادينيةً من خلال تبنيها أسطورة الفكرة الدينية، وتعبّر عن الأديان بأنها صياغة الحاجة البشرية، وأنّ دعوى كون القصص القرآنية ترجع إلى الأساطير القديمة ليست بالادعاء الجديد؛ فقد ادّعى بعض المستشرقين كجك

بيرك (Jacques Berque) في كتابه "دحض الأسطورة وقضيّة الوجود" أنّ القرآن صناعة بشرية استعان بالأساطير المتمثلة في قصص الأنبياء، لقد أول بيرك القصص القرآني تأويلاً غريباً على غرار تأويلات أستاذه كزيميرسكي (Kazimirski)؛ إذ ادّعى أنّ القرآن يبتكر شخصياتٍ ويخترق شواهد، زاعماً أنّ قصصه شبيهة بقصص العرب والمغامرات. [انظر: كيشانه، القصص القرآني في مرآة الاستشراق... دراسة نقدية، ص 69]

### المبحث الرابع: نقد الدليل الأركيولوجي

لا بدّ أن يكون النقاش في هذا المبحث من زاويتين ثنتين: الأولى: هل يمكن اعتبار الدليل الأركيولوجي مصدراً معرفياً؟ والثانية: وهل يتم استثماره أحياناً - بقصد أو بغير قصد - في سياقات فكرية تُعيد تشكيل نظرنا للتاريخ والدين؟

#### المطلب الأوّل: الأركيولوجيا وغياب القواعد العلمية

أولاً: التهافت المنطقي.. حين يغيب الدليل وتُعلن الأحكام!

من المبادئ الأساسية في المنطق المعرفي قولهم: "عدم الوجدان لا يدلّ على عدم الوجود". ومغزى هذا الأصل العميق أنّ غياب الدليل لا يعني بالضرورة غياب المدلول؛ فقد يكون الشيء موجوداً لكنّه خارج نطاق الملاحظة، أو لم تُعتمد الوسائل الصحيحة للكشف عنه بعد.

هذا المبدأ يوجّه الاستدلال العلمي والفلسفي على حدّ سواء، وهو تحذير واضح من مغبّة الوقوع في مغالطة منطقية شائعة: الخلط بين "غياب الدليل" و"الدليل على الغياب". الفارق بينهما ليس لغوياً فقط، بل هو فارق بين التفكير العلمي النزيه والادّعاء المتسرّع.

ولذلك، فإنّ فشلنا في العثور على دليل على وجود شيء ما لا يصلح أن يكون دليلاً على عدم وجوده، فالباحث قد يكون ناقصاً، أو الأدوات قاصرة، أو حتّى البيئة لا تُسعف الباحث، ومن هذا المنطلق، فإنّ ما قام به بعض الأركيولوجيين من نفي تاريخي لوجود الأنبياء بحجّة غياب الآثار، يتعارض مع هذا الأصل المنطقي بشكل واضح.

بل إنّ التمسك بغياب الأثر قد يقوّي فرضية الوجود؛ إذ إنّ إثبات العدم نفسه - وهو ما يدّعيه بعض الباحثين - يتطلّب دليلاً قاطعاً، وهذا ما لم يتحقّق.

ولنقف على التطبيق الخاطيء الذي وقع فيه الأركيولوجيون لهذا الأصل المنطقي، فقد ذكروا أنّ

الدليل الأركيولوجي أثبت أنّ الإسرائيليين لم يعرفوا التوحيد في المنطقة التي عاشوا فيها، بدليل وجود آلهة متعدّدة في تلك المنطقة خصوصاً في يهودا والسامرة. [انظر: الماجدي، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ص 277 و278].

أمّا مناقشة هذه الدعوى التي تخالف في حقيقتها قواعد البحث العلمي، فنقول أولاً: إنّ القرآن الكريم - بل وحتى الكتب المقدسة الأخرى كاللتوراة - ذكر أنّ عبادة الأوثان كانت موجودة حتى مع وجود التوحيد، وكان ذلك الزمان معروفاً بهذه المسألة؛ إذ ذكر في سفر الملوك أنّ الملك عمري الذي حكم بعد النبيّ سليمان عليه السلام وابنه أخاب بعده قد عبدوا الأصنام؛ فذكر في سفر الملوك: «وَأَخَابُ بْنُ عُمَرِي مَلِكٌ عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ وَالثَّلَاثِينَ لَأَسَا مَلِكِ يَهُوذَا، وَمَلِكِ أَخَابُ بْنُ عُمَرِي عَلَى إِسْرَائِيلَ فِي السَّامِرَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً. \* وَعَمِلَ أَخَابُ بْنُ عُمَرِي الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ قَبْلَهُ. \* وَكَأَنَّهُ كَانَ أَمْرًا زَهِيدًا سُلُوكُهُ فِي خَطَايَا يَرْبُعَامَ بْنِ نَبَاظَ، حَتَّى اتَّخَذَ إِيزَابَلُ ابْنَةَ أَثْبَعَلَ مَلِكِ الصَّيْدُونِيِّينَ امْرَأَةً، وَسَارَ وَعَبَدَ الْبُغْلَ وَسَجَدَ لَهُ. \* وَأَقَامَ مَذْبَحًا لِلْبُغْلِ فِي بَيْتِ الْبُغْلِ الَّذِي بَنَاهُ فِي السَّامِرَةِ. \* وَعَمِلَ أَخَابُ سَوَارِي، وَزَادَ أَخَابُ فِي الْعَمَلِ لِإِغَاظَةِ الرَّبِّ إِلَيْهِ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ» [سفر الملوك الأول: 16: 29 - 34].

ولذا فإنّ دعوى الأركيولوجيين أنّ التوحيد شيء وارد على اليهود لا تستند إلى دليل محكم، خصوصاً وأنّ الأركيولوجيين لم يتخذوا دليلاً محكماً في ذلك، فإنّ وجود الآثار على عبادة الأوثان لا ينفي وجود التوحيد في تلك المنطقة، وثانياً: فإنّ الكتب التوحيدية تذكر حرمة صناعة التماثيل التي تجسد التوحيد، أو تشير إليه وهذه المسألة أشير إليها في سفر الخروج أيضاً، «لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْتَالًا مَنُحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقَ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ» [سفر الخروج: 20: 4].

### ثانياً: الجدل الأركيولوجي بين ادعاء الحسم واستمرار السؤال

إنّ الجزم في هذا البحث الأركيولوجي ليس مهمّة سهلة، بل هو أمر معقّد، ويؤكّد ذلك جيمس هوفماير (James K. Hoffmeier)، وهو أركيولوجي ميداني بارز، حين يتحدّث عن "صمت الآثار" قائلاً: «أنا أدرك تماماً - بصفتي عالماً أركيولوجياً ميدانياً - مدى قلّة ما تبقى من الماضي القديم، بسبب العوامل الطبيعية، مثل الرطوبة والجفاف والزلازل، وكذلك بسبب التدخّل البشري من احتلال،

أو إعادة استخدام موادّ البناء، أو الحروب والحرائق، أو حتّى التنمية الحديثة الزراعية والحضرية؛ ولذلك، من الواجب دائماً أن نحافظ على توقّعات واقعية بشأن ما يمكن لعلم الأركيولوجيا أن يقدمه وما يعجز عنه» [James, Israel in Egypt: The Evidence for the Authenticity of the Exodus Tradition, p. 101].

هذا التصريح كافٍ لنسف الادّعاء بوجود "فراغ علمي مكتمل" أو "نتائج نهائية" في هذا الحقل، فغياب الدليل لا يعني شيئاً نهائياً، بل قد تكون الآثار ما تزال مدفونة، أو أنّها تعرّضت للدمار، أو ببساطة لم يُبحث عنها بالشكل المطلوب.

إنّ آلاف القطع الأثرية المحفوظة في المتاحف لم تُحلّ رموزها بعد، ولم يُعرف الكثير عن وظيفتها أو مغزاهما الحضاري. بل إنّ عدداً كبيراً منها لم يُدرس بعد أصلاً. ومع ذلك، تُطلق استنتاجات قاطعة تُنسب لعلم الأركيولوجيا وكأنّها حقائق نهائية!

فإذا كان القليل المكتشف لم يُفهم منه الكثير، والكثير لم يُكتشف بعد، فكيف يصل بعض الباحثين إلى يقينٍ لا يخالطه الشكّ؟

إنّ النظر إلى كتابات المنورين العرب وغيرهم يوحى بالفراغ العلمي الذي لا لبس فيه في أنّ التاريخ ينبغي أن يكتب بناءً على المعطى الأثري، ولكنّ هذه الدعوى مبالغ فيها، فكثير من التفاصيل التاريخية التي تشكّل حلقاتٍ لا يمكن ملؤها تبقى من دون إجابة، فضلاً عن ما يذكر بناءً على الآثار المكتشفة، وفي هذا السياق يذكر السواح المدافع عن القيمة المعرفية للآثار بقوله: «لقد اعتقد المؤرّخون والآثريون لفترة طويلة، أنّ الثورة المدنية في سورية قد تأخّرت عنها في سومر ومصر، وأنّ مناطق غرب الفرات لم تعرف المدن الكبرى، ولا الكتابة، خلال معظم الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أنّ الاكتشاف المثير لمدينة إيبلا القديمة في الشمال السوري قرب حلب، قد أثبت أنّ ظهور المدن الكبرى في سورية لم يتأخّر كثيراً عن ظهورها في سومر وفي مصر، فقد ظهرت إيبلا كمدينة مكتملة منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد» [السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، ص 18]. فكثير من الآثار لم تُفسّر والأكثر لم يفهم كونها فُصلت عن سياقها الثقافي، والمتبقي فُسر على غير دليل.

### ثالثاً: التسرّع العلمي وخطورة التعميم

من الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها بعض الباحثين الأركيولوجيين التسرّع في إطلاق الأحكام وبناء استنتاجات كبرى على دلائل محدودة أو غامضة. وهذا ما يدفع إلى التساؤل: أين التوازن العلمي؟ وأين احترام الإرث البشري المكتوب الذي يشكّل جزءاً مهمّاً من ذاكرة الحضارات؟

بل إننا لو سلطنا الضوء على مناهج بعض المشاريع الأركيولوجية الكبرى، لوجدنا أنها ممولّة من جهات رسمية أو سياسية، وقد لا تكون بعيدة عن غايات استعمارية أو أيديولوجية. أليس من المنطقي إذن أن يُشكك في حياديتها؟ وإذا جاز لهؤلاء أن يتهموا النصوص الدينية بالأدلجة، أليس من الأجدر أن نوجه لهم ذات الاتهام حين يتجاهلون المعايير العلمية الموضوعية؟

ثم إن من المشاكل الأخرى التي تواجه البحث الأركيولوجي قلّة المناطق التي شملها التنقيب الفعلي، خصوصاً تلك التي يُعتقد أنّ الأنبياء عاشوا فيها. فحتى اليوم، لم تُجر دراسات شاملة أو حفر علمي كافٍ في مواقع شديدة الأهمية تاريخياً ودينياً.

ويكفي أن نذكر ما قاله بعض الباحثين بشأن "آثار التيه" لبني إسرائيل في سيناء: «لقد مشطنا سيناء ولم نعثر على شيء»!

[Look: Rechar, The Limiatatoin of Surface Survers in Archaeological Surface in Mediterranean Area, pp. 45 - 47]

فهل هذا كافٍ للحكم بأن الرواية الدينية خاطئة؟ وهل البحث العلمي الجاد يُختزل إلى جملة كهذه؟! إنّ هذا يبعث على الدهشة، لا على الاطمئنان العلمي؛ لأنّ من الواضح أنّ هناك قضايا غير خاضعة للإثبات إلا من خلال النصّ الديني والرواية الدينية التي ذكرت خروج بني إسرائيل من مصر، ولا يمكن للدليل الأركيولوجي أن يكون دليلاً في قضايا كهذه، فهل يمكن أن نحصل على آثار أقدم الإسرائيليين عندما فرّوا من مصر؟!

ولذا يسرف الأركيولوجيون الغلاة خصوم التوراة اليهودية في تخطئتها، قبل استفراغ الجهد في البحث، وفي أحيان يستبين بالبحث الأثري أنّ صمت الآثار ما كان ينبغي أن يكون حجّة لإدانة التوراة؛ إذ تُخبر الآثار لاحقاً عن صدق التفاصيل التي تمّ إنكارها سابقاً، ومن الأمثلة على ذلك، جاء في الإصحاح 33 من سفر العدد حديث عن رحلة بني إسرائيل من وادي عربة إلى سهول موآب، وجاء في هذا الإصحاح عن بني إسرائيل: «ثُمَّ ارْتَحَلُوا مِنْ عَيِّمٍ وَنَزَلُوا فِي دَيْبُونَ جَادَ. \* ثُمَّ ارْتَحَلُوا مِنْ دَيْبُونَ جَادَ وَنَزَلُوا فِي عِلْمُونَ دِبْلَاتَايِمَ. \* ثُمَّ ارْتَحَلُوا مِنْ عِلْمُونَ دِبْلَاتَايِمَ وَنَزَلُوا فِي جِبَالِ عَبَارِيمَ أَمَامَ نَبُو» ومن ثم أردنّ أريحا، وهي رحلة أنكرها عدد من الباحثين، قائلين إنّها من وحي خيال الكاتب، وتدلّ على عدم الاطلاع على أحداث فلسطين قبل القرن العاشر قبل الميلاد، غير أنّ تشارلز كراهمالكوف (Charles Krahmalkov) قد أثبت لاحقاً معقولة الرحلة من خلال ثلاث خرائط مصرية قديمة، أقدمها خريطة تعود إلى زمن تحتمس الثالث (1504 - 1450 ق.م)

منقوشة على جدار معبد الكرنك في جزء مما يسمّى "قائمة فلسطين"، فطبق هذه القائمة يمرّ الطريق من الجنوب إلى الشمال عبر عَيِّمٍ ودِيبون وآبَل والأردن.

[Look: Walter, The Old Testament Documents: Are They Reliable? p. 99]

#### رابعاً: العمل الأركيولوجي قابل للنقد والتفكيك

لا بدّ من التسليم في النهاية بأنّ العمل الأركيولوجي نتاج بشري يخضع للنقد والتحليل، فمنه ما هو قطعي - وهو قليل - ومنه ما هو ظنيّ، والقطعي الذي تساعد عليه الأدلّة الأخرى المعتمدة من العقل والنقل أو العلم يُقبل في تعزيز التراث البشري، وأمّا الظنيّ فيبقى في دائرة الإمكان حتّى تأتي أدلة أخرى تعزّز من موقعيته، فالنقوش المكتوبة هي من عمل الإنسان، ويحتمل فيها الخطأ والصدق، ويحتمل تدخّل السياسة والأهواء والأيدولوجيات في رسم معالمها؛ ولذا قد تصدق نسبة النقش إلى زمان معيّن، ولكن لا يمكن التصديق بمضمونها؛ إذ يُحتمل أنّ بعض الملوك كانت تُكتب لهم الانتصارات والفتوحات لأجل الفخر والشهرة والخلود.

#### المطلب الثاني: التهافت المنهجي.. حين يتحدّث الصمت وتُبنى الروايات!

إذا كان المنهج التجريبي هو الأداة الأبرز في قراءة المادة الأركيولوجية، فإننا أمام إشكال معرفي لا يمكن تجاهله. فالمعرفة الناتجة عن تحليل الآثار تخضع لمحدّدات علمية وتقنية، وليست معصومةً من الخطأ أو التأويل. فعلى سبيل المثال، تعتمد تقنيات تاريخ القطع الأثرية - كالكربون المشعّ 14 (Carbon - 14) أو فحص الحمض النووي - على معادلات كيميائية وفيزيائية دقيقة، لكنّها ليست نهائيةً، بل تحتوي على هامش خطأ يصل إلى نحو 120 سنةً، وهي فجوة زمنية ليست بالهينة، خصوصاً حين نحاول التمييز بين حقبة تاريخية متقاربة، أضف إلى ذلك أنّ ما تمّ تحليله من القصب والبرديّ، والذي تمّت عليه الاختبارات الكربونية لقياس معدل عمر اللقى والآثار، يختلف من منطقة إلى أخرى، فلا يوجد معيار ثابت في هذه الاختبارات.

إنّ إحدى الأمور التي يميّز بها الأركيولوجيون العصور هو اعتمادهم على التشابه، «كتمييزهم العصور بطبائع الخزف في كلّ عصر مثلاً، جعل ذلك أنّهم يغفلون عن أنّ النمط المميّز في الصناعة والنقش لا ينقطع عادةً مرّةً واحدةً؛ بل قد يعيش النمط في غير زمنه الأول، ويعاصر أشكالاً فنيّةً أخرى، وينقطع في بيئة بصورة بطيئة غير فجائية، كما أنّ عصور تغيّر الأنماط قد تكون

غير متساوية طولاً؛ بما يجعل رسم الخارطة الزمنية مشكلاً» [انظر: عامري، الوجود التاريخي للأدبياء وجدل البحث الأركيولوجي، ص 53]. فالبحث الأركيولوجي نظام شديد التعقيد وليس من السهل بمكان، والعثور على الشيء ليس تمام الطريق، بل خطوة تنتظرها خطوات أخرى أكثر تعقيداً؛ لأنها مادة صامته تحتاج إلى تعيين زمانها ووظيفتها وربطها في سياقها، وهي مهمة شاقة جداً.

وهنا نصل إلى جوهر المسألة: المادة الأثرية صامته بطبيعتها. إنها لا تخبرنا بنفسها عن الماضي، بل تنتظر من يفسرها، ومن هنا تدخل الذات البشرية - بما تحمله من خلفيات فكرية، وأيديولوجيات، ونماذج تفسيرية - إلى صلب العملية المعرفية.

فما يقدمه الأركيولوجي ليس "الحقيقة كما هي"، بل "تفسير" لهذه الآثار. وتتنوع التفسيرات بتنوع المفسرين، وتتناقض أحياناً حسب الزاوية الفلسفية أو الفكرية التي يُنظر منها إلى القطعة الأثرية. وهذا بالضبط ما يجعل الهرمينوطيقا (علم التأويل) وفكرة "موت المؤلف" حاضرتين بقوة في النقاش الأركيولوجي، فالمفسر هو من "يُحيي" الأثر ويلبسه المعنى الذي يراه.

بل يمكن القول بأن "نسبية الفهم" حاضرة في البحث الأركيولوجي، وبالتالي يمكن لكل باحث أركيولوجي أن يرسم لنا صورةً عن الماضي بحسب المعطيات المتوفرة عنده، ثم يقوم بتركيب هذه المواد الصامته من الآثار في سياقات معينة يحاول أن يجد بينها سياقات ذات دلالة، ومنها ينطلق نحو تمام الصورة وإن كانت هناك حلقات مُفرغة فيها فهو من يملئها؛ ولذا لم يستنكر الأركيولوجيون عندما قام فاضل الربيعي بترتيب أحداث التوراة على بلاد اليمن، وأن التوراة كُتبت في بلاد اليمن، ورتب تاريخ بني إسرائيل بناءً على هذه المسألة، ودليله أن الأركيولوجيين قد انتهوا إلى أن أرض فلسطين الحالية لا علاقة لها البتة بالأحداث التوراتية؛ إذ يقول: «والأمر المؤكد بالنسبة لي، كما برهنت في مناسبات سابقة، أن التوراة لا تتضمن أي شيء يخص فلسطين أو يلمح إلى ذكرها بأي صورة من الصور، بل ولا توجد أدنى صلة للتوراة بتاريخها، وكل ما يُزعم عن وجود وصف لأرضها في التوراة، ليس أكثر من ترويح لأكاذيب وخدع استشراقية، تنتهي للعصر الاستعماري» [الربيعي، القدس ليس أورشليم، ص 4].

ويشهد لما نقول قول الأركيولوجي ندف نامان (Nadav Naaman): «نتائج الحفريات الأركيولوجية مثل المصادر المكتوبة، مفتوحة لتفسيرات مختلفة، وأحياناً متناقضة. الأدبيات الأركيولوجية تعج بالخلافات على عدد لا حصر له من القضايا، بما في ذلك طبقية الآثار الفخارية وتصنيفها، ووظيفة

المباني والمصنوعات اليدوية في الحفريات، والتسلسل الهرمي للمستوطنات، وتقدير عدد السكان وأشياء أخرى كثيرة. البيانات الأركيولوجية لا تتحدث عن نفسها، وتفسرها محفوف بالصعوبات».

[Nadav, Does Real Archaeology Really Deserve the Status of A "High Court"? Edivance and Ideology: Essays on the History of Ancient Israel, p. 167]

### أولاً: أزمة السياق الثقافي والاجتماعي

المعضلة الأكبر في البحث الأركيولوجي لا تكمن في الوسائل التقنية أو التحليلية وحسب، بل في فصل المادة الأثرية عن سياقها الثقافي والاجتماعي. فالأثر المادي لا يُعبّر بذاته عن الدين، أو الفكر، أو الهوية، أو الصراعات القيمة. هذه عناصر غير مادية، ولا يمكن لقطعة حجرية أو فخارية أن تنقلها دون تفسير، كما لا يمكن فهمها خارج شبكة العلاقات التي وُجدت فيها.

وبالتالي، فإنّ قراءة التاريخ عبر "الأثار فقط" تشبه محاولة فهم كتاب بعد تمزيق صفحاته والإبقاء على الصور فقط. إنّها قراءة ناقصة، ومليئة بالفراغات.

فإنّ أزمة السياق أزمة كبيرة في البحث الأركيولوجي، خصوصاً وأنّ علم الأركيولوجيا في العقود الماضية لم يكن ذا أهمية؛ لذا كانت عمليات التنقيب والحفر عمليات لم تخضع لمنهجية محدّدة وفق دراسات مخطّطة، بل كانت تخضع للمواقع للحفر العشوائي، ومعلوم أنّ الحفر والتنقيب حالة تدميرية للموقع في سبيل البحث والحصول على المقتنيات والآثار، خصوصاً مع ملاحظة أنّ المواقع لم تكن للتسجيل ومعرفة طبقات الأرض وعمر اللقى؛ ولذا كانت تؤخذ الآثار ويحتفظ بها، وهذا سبب ضياعاً للسياق الثقافي والتاريخي للآثار، كما سبب تدميرًا للمواقع الأثرية ولم تعد صالحة بنسبة ما للتنقيب مرّة أخرى.

ومعلوم أنّ حذف السياق عن الآثار يفقد المادة الأثرية الأهمية في ربطها ضمن سلسلة الأحداث التي يمكن أن تقع في سياقها في سبيل تصوير انسجام معيّن في أحداث تاريخية.

### ثانياً: المنهج التجريبي وحصريّة المعرفة به

إنّ حصر المعرفة في المنهج التجريبي وحده، واعتباره الأداة الوحيدة لقراءة التاريخ أو الواقع، هو موقف فلسفي أكثر من كونه علمياً. فهناك قضايا ميتافيزيقية - كالنبوءة، والوحي، والإيمان - لا يمكن اختزالها في مادة صلبة أو فحص كيميائي.

إنَّ المنهج التجريبي يتوقف عند حدود المادة، بينما تتجاوز النصوص الدينية تلك الحدود، وتغوص في عوالم المعنى والقيم؛ ولذلك لا بدّ من استحضار مناهج أخرى في التعامل معها: كـ المنهج العقلي الذي يعتمد على التحليل المنطقي، والمنهج النقلي الذي يتعامل مع التراث النصّي واللغوي بوصفه حاملاً للمعرفة.

ثم إنَّ الأركيولوجي يدّعي أنّ علم الأركيولوجيا علمٌ مبنيٌّ في الأصالة على الاستقراء، ولنقف هنا؛ هل دليل الاستقراء حاصل هنا في ما يدّعون؟ لا شكّ في أنّ كلامهم في الاستقراء الناقص، وهو مبنيٌّ على استقراء الجزئيات؛ لكي ينتهي الأمر في تعميم الحكم الكليّ، وتعميم الحكم الكليّ لا شكّ في أنّه لا يحصل بمجرد المشاهدة للجزئيات، فإنّ ذلك لا ينتهي بهم إلى القطع واليقين في التعميم، بل سوف تكون النتيجة خاطئة علمياً، فإنّ إحدى المسائل التي تذكر في قضية الاستقراء أنّ المُستقرئ لا بدّ أن يلاحظ شيئاً آخر، إضافةً إلى المشاهدة لمجموعة غالبية من الجزئيات ويستكشف من خلالها الوصف الغالب؛ لكي يشخّص العلة التي هي سبب ذلك الوصف الغالب في الجزئيات، وبالتالي يستطيع أن يعمّم الحكم من خلال الوصف الغالب في الجزئيات واستكشافه العلة التي تقف وراءه، يقول الشيخ المظفر: «أن يبنى مع ذلك - المشاهدة - على التعليل أيضاً، بأن يبحث المشاهد لبعض الجزئيات عن العلة في ثبوت الوصف، فيعرف أنّ الوصف إنّما ثبت لتلك الجزئيات المشاهدة لعلّة أو خاصية موجودة في نوعها، ولا شبهة عند العقل أنّ العلة لا يتخلّف عنها معلولها أبداً... وجميع الاكتشافات العلمية وكثير من أحكامنا على الأمور التي نشاهدها من هذا النوع» [انظر: المظفر، المنطق، ص 258]. وإلاّ سوف يكون هذا الاستقراء ظنيّاً لا ينفع في الاستدلال المنطقي والتعميم منه مخالف للضوابط المنطقية.

ومن هنا فلنطبق هذه النتيجة المنطقية على البحث الأركيولوجي، فهل ما يتمّ من استقراء منطقيّ حقّاً؟

أ- البحث الأركيولوجي يريد رسم صورة كلية عن ماضي الإنسان، وهي نتيجة يبتغي الوصول إليها، وما يحصل من عمل تنقيبي هو البحث عن الجزئيات (الموضوعات) التي يريد أن يرسم صورةً من خلالها، فالبحث الأركيولوجي في المرتبة الأولى يبحث عن الموضوعات، ثمّ بعد ذلك يريد أن يستنتج أحكاماً خاصّة لكلّ جزئية من هذه الجزئيات، أي وضع الجزئية في سياقها الخاصّ، وبعد ذلك يستنتج الحكم الكليّ والصورة الكلية التي يرسمها عن ذلك الماضي الذي عاش فيه الإنسان.

ب- ولا شك في أن البحث عن الموضوعات (الجزئيات بالتعبير المنطقي) ليس بالأمر السهل، حتى إن كان الوصول إليها ممكنًا؛ إِمَّا جميعًا فيكون استقراءً تامًّا، وهذا ممتنع في البحث الأركيولوجي أو لا أقلَّ غالبًا، وهذا غير حاصل أيضًا، والاستقراء المنطقي يكون في هذين الأمرين، أمَّا الأوَّل وهو الامتناع فلعلنا من الخارج أن الكثير من الآثار إِمَّا دُمِّرت نتيجة الأعمال التخريبية - وهي إِمَّا بفعل البشر لأغراض التوسعة ولكسب المال، أو بفعل الظروف الطبيعية كالزلازل والفيضانات والسيول وغيرها - وعليه لا استقراء تامًّا في هذا المجال؛ وأمَّا الثاني (الأغلب)، فإنَّ الأركيولوجيين أنفسهم يعترفون بأنَّ ما تم اكتشافه لم يتجاوز 30% من مجموع الآثار، وهذه النسبة مبالغ فيها أيضًا؛ لأنَّه لا علم بالمجموع لكي تحدّد النسبة المئوية؛ ولذا تشهد الشواهد الأركيولوجية حالة التناقض في النتائج التي ينتهون إليها وهي بين الحين والآخر تتغيَّر بفعل الكشوفات الجديدة، وقد بدّدت الكشوفات الجديدة كثيرًا من النتائج التي توصلوا إليها سابقًا، وهذا ما تشهد به الدراسات الأركيولوجية.

ج- أمَّا الصورة الكلية المراد رسمها عن النشاط الإنساني في العصور الغابرة، فلا يمكن استنتاجها وإعطاء الحكم الكلي الذي يمكن أن يعمّم على الجميع، فإنَّ لكلِّ حالة ومنطقة طريقة عيشٍ خاصَّةً بها، ووسائل إنتاجٍ خاصَّةً أيضًا، فالحكم الكلي أو المحمول الذي يراد له التعميم غير صالح للتعميم.

د- المنهج المتبع لدى علماء الآثار - وفق إفادتهم - هو المنهج التجريبي، ولا يصلح الاستقراء في هذا المقام؛ لأنَّ الاستقراء المنتج لنتيجة صحيحة هو الذي يضمّ مقدمةً أخرى إضافةً إلى المشاهدة، وهي الكشف عن الوصف المشترك الذي يمكن من خلاله استنباط السبب في اشتراك الجزئيات في ذلك الوصف، وهذا الأمر غير موجود في مناهجهم؛ إذ إنَّ الاستقراء الذي يستخدم في العلوم الحديثة عادةً ما يبحث عن تفسيرات محتملة وترجيحية، وليس بالضرورة البحث عن أسباب ثابتة ومطلقة، كما أنَّ السببية في العلوم الإنسانية معقّدة ونادرًا ما تكون غير مباشرة أو قابلة للتعميم، بخلاف الاستقراء الأرسطي الذي يبحث عن الوصف المشترك والسبب الكامن وراء الاشتراك، والاستقراء الأرسطي قد لا يتوافق مع الممارسة العلمية المعاصرة.

وعليه، لا بدّ من مقارنة الأركيولوجيا بوصفها مجالًا معرفيًا قابلاً للنقد والتفكيك، لا مصدرًا مقدّسًا للحقائق، فهي ليست نهاية الجدل، بل بدايته.

## الخاتمة

النتيجة التي يمكن الخروج بها هي أنّ البحث الأركيولوجي لا يمكنه لوحده أن يحسم قضايا دينية وتاريخية كبرى، هو شاهد مساعد، وليس قاضيًا حاسمًا.

أولاً: أنّ الأركيولوجيا لا ترتقي إلى مستوى الدليل القاطع، ولا تُبرّر معرفيًا نفي القضايا الدينية أو إثباتها، بل يمكن القول إنّ هذا المنهج - في صورته المتداولة - يواجه أزمة منهجية ومعرفية تجعل الاعتماد عليه في رسم معالم التاريخ الإيماني أمرًا محفوفًا بالمخاطر، ويستوجب الحذر والتأني، لا اليقين والتعميم.

ثانياً: أنّ الوثوق بالدليل الأركيولوجي بوصفه مصدرًا معرفيًا لا يمكن أن يكون مطلقًا، بل هو نسبي ومتفاوت بحسب نوع الأثر، وطبيعة السياق، ودقة التحليل، وحيادية المفسّر، فالأركيولوجيا ليست علمًا تجريبيًا محضًا مثل الفيزياء أو الكيمياء، بل علم تفسيري يتعامل مع شواهد صامتة، ويعتمد في كثير من الأحيان على التأويل وربط الدلائل ببعضها في سياق افتراضي.

فمن جهة، لا يمكن إنكار ما قد تقدّمه الأركيولوجيا من معلومات حول العمارة، والأنظمة الاقتصادية، والممارسات الجنائزية، والأنشطة الحياتية اليومية. ولكن من جهة أخرى، يصعب الاعتماد عليها في القضايا الكبرى المرتبطة بالتصورات الفكرية، والدينية، والروحية؛ لأنّها لا تستطيع التعبير عن غير المادّي، ولا تقديم شهادة مكتملة حول الوقائع التاريخية المعقّدة؛ لذلك لا يعدّ الدليل الأركيولوجي دليلًا حاسمًا بذاته، بل هو أداة داعمة ضمن شبكة معقّدة من الأدلّة، تحتاج إلى التأويل والمقارنة، ولا يمكن الاعتماد عليها بمعزل عن المصادر الأخرى، كالنصوص، والسياقات الثقافية، والآثار الأدبية والدينية.

ثالثاً: عدم الحيادية والتحيز في المشاريع الأركيولوجية - بقصد أو بغير قصد - وهذا ما تشير إليه الشواهد المعاصرة؛ إذ سبّب ذلك خروج الأبحاث الأركيولوجية من كونها أدوات كشف علمي إلى أدوات توجيه أيديولوجي. فحين يُقدّم غياب الأثر بوصفه دليلًا على غياب الحدث، أو حين يُستبعد البعد الديني من تفسير أيّ ظاهرة حضارية، فإنّ الأركيولوجيا تتحوّل من حقل علمي إلى أداة لإعادة تشكيل الوعي التاريخي والديني، وتجعلها تسير في سياقات فكرية تُعيد تشكيل النظرة للتاريخ والدين ضمن أطر أيديولوجية.

ففي كثير من الأحيان، يتمّ توظيف نتائج الحفريات - بشكل مباشر أو غير مباشر - لتأكيد سرديات معيّنة، أو إنكار أخرى، بما يخدم تصوّراتٍ حدائيه أو علمانيةً تُحاول تقويض المرجعية الدينية. وربما لا يكون هذا دائماً بدافع مقصود أو تأمري، لكنّ الانحياز الفكري غير المُعلن كثيراً ما يتسرّب إلى طريقة اختيار المواقع، وتفسير اللقى، وتوجيه الأسئلة البحثية، بل إنّ التمويل السياسي لبعض مشاريع التنقيب - خاصّةً في المناطق ذات الحساسية الدينية - يثير تساؤلاتٍ جادّةً حول استقلالية البحث، ومدى حياديته. فحين يتمّ تجاهل مواقع ذات أهمّية دينية كبرى، أو يُستعجل إصدار أحكام قاطعة دون دراسة شاملة، فإننا أمام تسييس للعلم، لا مجرد استكشاف بريء للماضي.

## قائمة المصادر

- القرآن الكريم.  
الكتاب المقدس.  
أبو شنب، جمال محمد، قواعد البحث العلمي والاجتماعي، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009 م.  
نادية محمد أحمد، البحث الأركيولوجي، الناشر: المعرفة الجامعية، القاهرة، 2006 م.  
ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، 1404 هـ.  
الحكيم، محمدباقر، القصص القرآني، الناشر: مطبعة إسماعيليان، قم، 1416 هـ.  
الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 1975 م.  
الخطيب، محمد، علم الآثار، الناشر: دار مؤسسة رسلان، دمشق - القاهرة، 2023 م.  
الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، الناشر: دار الشامية، الطبعة الأولى، 1412 هـ.  
الربيعي، فاضل، القدس ليس أورشليم، الناشر: دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، 2020 م.  
الرماح، إبراهيم عبد الله، الإنسانيّة المستحيلة، الناشر: مركز دلائل، الرياض، الطبعة الثانية، 1439 هـ.  
الزحشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، 1998 م.  
السفاح، فراس، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، الناشر: دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى، 1995 م.  
الماجدي، خزعل، أنبياء سومريون (كيف تحوّل عشرة ملوك سومريين إلى عشرة أنبياء توراتيين؟)، الناشر: المركز الثقافي للكتاب، المغرب، الطبعة الأولى، 2018 م.  
الماجدي، خزعل، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد، الناشر: المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، 2014 م.

- المظفر، محمدرضا، المنطق، الناشر: دار الغدير، قم، الطبعة السابعة، 1429 هـ.
- الموسوي، روح الله، جدلية الرؤية الأنسية والرؤية العقديّة، مجلّة الدليل، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة، كربلاء المقدّسة، 2019 م.
- باربور، ايان، علم ودين [العلم والدين]، ترجمه بهاءالدين خرمشاهي، نشر دانشگاهي، تهران، چاپ دوّم، 1374 هـ ش.
- بلبول، عبد الباسط، القصاص القرآني، الناشر: كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، مصر، 1971 م.
- جارندر، علم الآثار، ترجمة: زكي محمد حسن، محمود حمزة، الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)، مصر، 2020 م.
- طه حسين، في الشعر الجاهلي، الناشر: دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس، الطبعة الثانية، 1998 م.
- حمد، إنصاف، المعرفة والتجربة دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم، دمشق، وزارة الثقافة، 2006 م.
- عاصم محمد رزق، علم الآثار بين النظرية والتطبيق، الناشر: مكتبة مدبولي، سنة الطبع: 1996 م.
- سيد أحمد، الإلحاد.. إشكالية الدين والتدين، الناشر: قسم الشؤون الدينية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، الطبعة الأولى، 2018 م.
- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2005 م.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، بيروت، الناشر: دار الكتاب اللبناني، 1982 م.
- ضو، جورج، تاريخ علم الآثار، ترجمة: بهيج شعبان، الناشر: منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثالثة، 1982 م.
- عامري، سامي، العلموية.. الأدلجة الإلحادية للعلم في الميزان، الناشر: رواسخ، الكويت، 2021 م.
- عامري، سامي، الوجود التاريخي للأنبياء وجدل البحث الأركيولوجي.. شبهات وردود، الناشر: رواسخ، الكويت، الطبعة الثانية، 2021 م.

كيشانه، القصص القرآني في مرآة الاستشراق.. دراسة نقدية، الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية التابع للعتبة العباسية المقدسة، كربلاء، الطبعة الأولى، 1442 هـ.

متقي زاده، عيسى، مقالة أسلوب القصة في القرآن، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 15.

موساوي، مجدوب، مدخل إلى علم الآثار، الناشر: شعبة التاريخ في كلية العلوم الإنسانية بجامعة الدكتور الطاهر مولاي بسعيدة، الجزائر، 2021 م.

مصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزرات فرهنگ وارشاد اسلامي - تهران، چاپ يكم، 1368 ش.

معرفة، محمد هادي، شبهات وردود حول القرآن الكريم، الناشر: منشورات ذوي القربى، قم، الطبعة الرابعة، 2009 م.

روني إيلى ألفا، موسوعة أعلام فلسفة العرب والأجانب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ.

Adrian Curtis, ed. Oxford Bible Atlas, Oxford University Press, United States, Fourth Edition, 2007.

Aundre Lalande, Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie, 2010.

Cleator, P., Archaeology In The Making, St. Martin's Press, London, 1976.

Colin R. & Paul G. Bahn, Archaeology: Theories, Methods, and Practice, The University of Toronto Press, 6<sup>th</sup> Impression, 1963.

James K. Hoffmeier, Israel in Egypt: The Evidence for the Authenticity of the Exodus Tradition, Oxford University Press, 1996.

James K. Hoffmeier, Israel in Egypt: The Evidence for the Authenticity of the Exodus Tradition, Oxford University Press, New York, Oxford, 1996.

Jerry Fodor, Is Science Biologically possible, In Naturalism Defeated? James K. Beilby, ed. Ithaca: Cornell UNIVERSITY Press, 2002.

Joho James Wellmuth, The Nature and Origins of Scientism (Milwaukee: Marquette University Press, 1944.

Michel Foucault, The Archaeology of Knowledge, Pantheon Books, 1<sup>st</sup> published, 1972.

Nadav, Na aman, Does Real Archaeology Really Deserve the Status of A "High Court"? in Between Edivance and Ideology: Essays on The History of Ancient Israel, Bob Becking, Lester Grabbe, eds. Leiden: Brill, 2011.

Rechard, The Limiatatoins of Surface Survers In Archaeological Surface in Mediterranean Area

Richard N, Williams and Daniel N, Robinson, Scientism: Te New Orthodoxy, New York, An imprint of Bloomsbury Publishing Plc, 1<sup>st</sup> Edition, 2015.

Richard N. Williams and Daniel N. Robinson, Scientism: The New Orthodoxy, An imprint of Bloomsbury Publishing Plc, New York, 1<sup>st</sup> Edition, 2015.

Walter, C. Kaiser, The Old Testament Documents: Are They Reliable Relevant?, Downers Grove, 1<sup>st</sup> Edition, 2001.

William, What Did the Biblical Writers Know and When Did They Know it? Michigan: Wm. B.Eerdmans Publishing, 2006.

Le Dantec Félix, «Pragmatisme et scientisme», La Grande Revue, vol. 70 (1911).